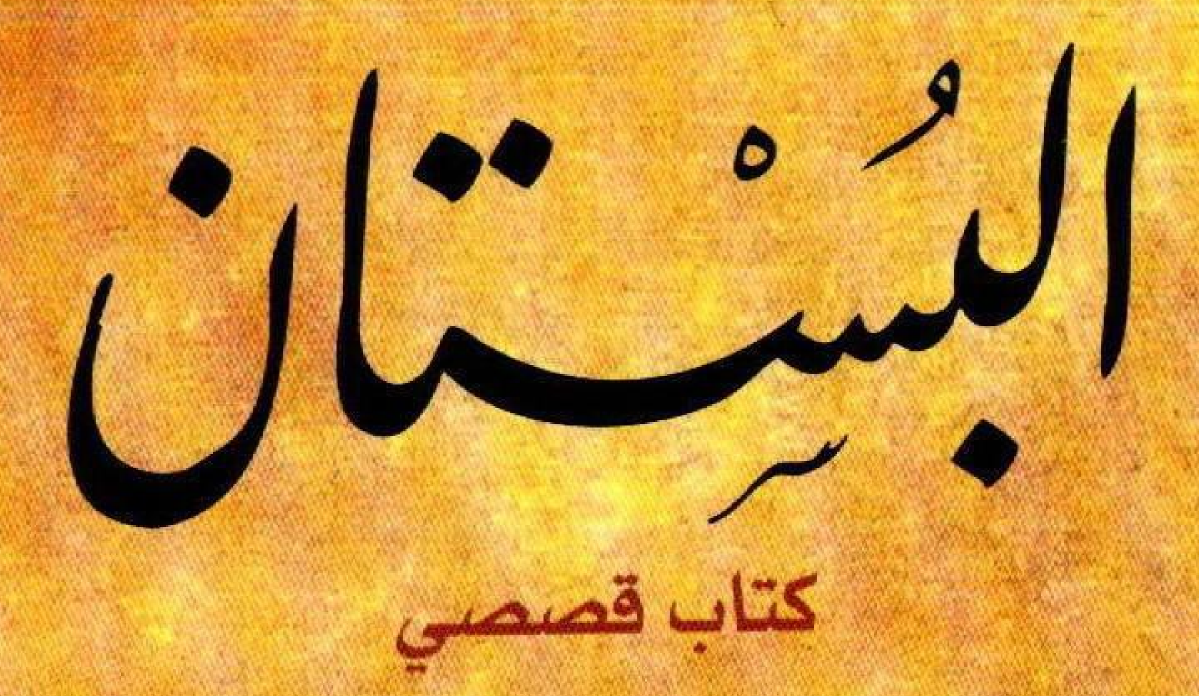
محمد المخزنجي



البستان

كتاب قصصي



دار الشروق


البستان

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٦١٧/ ٢٠٠٧
ISBN 977-09-1952-7

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد المخزنجى

البُسْتان

كتاب قصصي

دار الشروق

المحتويات

١ـ فيزيقيات

٢ ـ سيكولوجيات

٣ـ باراسيكولوجيات

-١-

فيـزيـقيات

الدليل

على ظهر قارب نحيف وسط أحراش الغاب عند حافة البحيرة وقفت أراقب ما يحدث. كنت أستعين بمنظار مقرِّب لأرصد هذه الطريقة من طرق صيد البط البرى دون أن أصدقها. . بدت لى تافهة التدبير وغير معقولة ومنفرة التسمية: «التغريق». ثم إن أنوف الصيادين الذين يقومون بها ذكَّرتنى بالهكسوس. كنت أعرف أنهم تسللوا قديمًا إلى هذه البقعة واستوطنوا ضفاف البحيرة. وأوحت لي ذكرى «تانيس» الغارقة تحت الماء أمامي بأن شيئًا كريهًا ربما يكرر نفسه. ضحكت ساخرًا عندما رأيت الصياد الذي أتابعه يعد عدته. . ربط مطواة من عروتها فى خيط يتدلى من معصمه، ولبس طاقية من جلد وريش بطة محنطة على رأسه وراح يوغل فى الماء. . غطس حتى أنفه، وبدا وسط البحيرة وكأن بطة برية تعوم هناك. لكنها كانت بطة ركيكة. . شديدة الركاكة لمن يمعن فيها ولو لحظة.

لاح سرب البط فى أفق البحيرة يقوده ذكر البط الدليل. وتقدم السرب كرأس سهم كبير داكن على صفحة السماء الصافية المضيئة. بدا لي كمعنى كونى جليل فى انطلاقه. لكننى انقبضت

عندما فوجئت به يحيد عن سبحه السماوى ويهبط نحو الماء . . نحو الطائر المزيف العائم . . وكنت خافق القلب أنتظر أن تلتقط عينا الطائر الدليل جلافة الخدعة . ولابد أن هذا قد حدث ولو فى اللحظة الأخيرة . لكن الدليل لم يتراجع ، وأمعن السهم فى هبوطه . وفى لحظة سمعت صوت رشاش الماء الذى لامسته أقدام الطيور وبطونها . حط السهم على مياه البحيرة متحولا إلى مثلث من طيور متزاحمة ، وفى قلب المثلث كان الكمين .

كانت الطيور بقرب البطة الخدعة تنبض نبضة شاملة صغيرة . وفى لمحة يختفى واحد منها مخلفا بمكانه ثغرة سرعان ما يسدها تزاحم الطيور . وكان الهكسوسى فى هذه اللمحة يمد يده خفيفة تحت الماء ويمسك بقدمى أقرب البطات إليه . يشدها تحت الماء قبل أن تصرخ أو تنتفض ويعالجها بالذبح ، ثم يربطها من قدميها مدلاة نازفة فى عقدة بالزنار حول وسطه . راحت الطيور تتناقص بسرعة . وكنت أعجب كيف لا يريبها تناقصها المتفاقم أو تلوُّن المياه من حولها بالدم . ورجّحت أن الهكسوسى فى قنصه كان يبتعد عن الدليل .

وضح أن الصياد تعمد إبقاء الدليل إلى النهاية . وكانت الطيور كلما تناقصت تتجه بشكل آلى إلى التراص من جديد ، مبقية على شكل المثلث والدليل على رأسه . ورجح لي أنها فى رحلة طيرانها الطويلة ولحظات عومها لم تكن تتلفت حولها قط . كانت تكتفى بأن يتابع كل منها وجود الدليل ، ويتبعه . وما طيرانها فى شكل رأس السهم أو تراصها فى ذلك المثلث إلا ترتيب آلى يسمح لكل

منهـا بفـرجة للإطـلال على الدليل . . يراه فيطمـئن إلى وجـوده . يختفى جاره أو يبقى ، لا شيء يهم ما دام الدليل هناك ! . . طار ، يطير وراءه . . وحط ، يحط . ولابد أن الهكسوسى كان يعى ذلك فيُبقي على الدليل . ألم ينتبه الدليل ؟

وكيف كان ينتبه الدليل ، وقد راقبته عبر منظارى طويلا ؟ ! . . لم يكن ينظر حواليه ولا خلفه . بدا لى أنه لا ينظر إلا إلى نفسه فقط ما دام يحس بأن هناك طائرا من بنى جنسه يتبعه . ولم يكن الطائر الذى بقى يتبعه أخيرا غير طاقية الهكسوسى المختبئ تحت الماء . البطة الركيكة التى انتفضت بصيحة ظفر كامل . ولم يشد الصياد فريسته ليذبحها تحت الماء هذه المرة . لقد أمسك بها مبقيا عليها حية . وأى حياة للدليل فى قبضة صياد خرج من الماء الدامى منتشيا ، وحول وسطه تتأرجح مدلاة من أقدامها المربوطة أجساد بقية الطيور . . السرب الذبيح الذى كان ! ■

على أطراف أصابع الأقدام

تسللت يده المضمومة خارجة من الشُّرَّاعَة اليمنى للباب الموصود لتلتقى بيدها الآتية من الشراعة اليسرى، وارتبكت اليدان وهما تتعاونان معًا فى وضع القفل على الباب من الخارج، ثم أسرعتا بالفرار. انغلقت ضلفتا الزجاج المصنفر بسرعة. وبسرعة تقهقرا إلى الداخل، ومضيا يتساحبان.

كانا يمشيان على أطراف أصابع أقدامهما العارية، هو فى الأمام وهى وراءه. . تتقدم فتجاوره، وتتأخر فتردفه. . لكنه يبدو متقدما دومًا وهما يمران فى شبه ظلمة. . يتأكدان من إحكام إغلاق كل منافذ الشقة الصغيرة، الغرفة الوحيدة والحمام والمطبخ، ولم يعد أمامهما غير الصالة التى تتناثر فيها كراسى «الأنتريه» والتى تطل على الشارع بنافذة وشرفة.

كان باب الشرفة تام الإيصاد. . الشيش مغلق، وضلفتا الزجاج كذلك، لكن النافذة فى الجوار لم يكن لها شيش، إذ هى من الزجاج المؤطر بالألومنيوم. . مغلقة، وتنسدل عليها ستارة بجناحين من الدانتيلا السماوية، يعبرها النور خفيفًا وضاربًا إلى الزرقة.

وقفا بقرب النافذة متواجهيْن فى غمرة النور السماوى، وكانا صغيرين يجمع بينهما جمال أليف. . هو فى بيچامة فاتحة، وهى فى قميص نوم من «البراش» الأبيض، لا يكادان يختلفان عن شكليهما فى صورة زفافهما الحديثة التى تظهر خلفهما معلقة على الجدار، فى امتداد النور.

مكثا برهة يترامقان حائرين خائفين، ثم. . وكأنهما يتبادلان أفكارهما بالتخاطر، مالا معًا على النافذة وباعدا جزءًا صغيرًا صغيرًا، بحذر، بين أخمص جناحى الستارة. . وشرعا يطلان.

كان الميدان مشمسًا، والظلال تطؤها الأقدام. وفى الوسط كان ثمة رجال كثار بلحى كثيفة وأغطية رؤوس بيضاء وملابس بلون الكتان أو الدَّمُّور على هيئة قمصان طويلة فضفاضة وسراويل واسعة كميشة تظهر أرجلهم حتى أعالى الأرساغ. . كانوا يعملون بمناشير كهربائية ضخمة، بشكل صَوَان دَوَّارة، فى تمثال المرأة الممتطية جوادا يبدو منطلقا بها فى عكس اتجاه الريح.

كان الجواد قد قُطعت رأسه، وكذلك رأس المرأة، ولاح مكان النهدين المقطوعين فارغا ومظلمًا، وكانوا يعملون هناك عند أذرعها، وعند ذيل الحصان الذى أوشكوا على فصله.

بدت الحركة عند أطراف الميدان هادئة نوعًا. . قليل من السيارات والمشاة. . نسوة مختفيات تماما فى ملابس داكنة ضافية، ورجال يخبون بسرعة وتجهم. وفى الأركان راح يمشى جيئة وذهابا رجال ضخام الجثث بلحًى مرسلة وجلاليب وشملات رؤوس بيضاء. . كانوا يتمنطقون بأحزمة جلدية عريضة

تتدلى منها خناجر معقوفة وسيوف مبيتة فى أغمادها. وكانت الخناجر والسيوف تتأرجح على إيقاع خطوهم المتثاقل.

تراجعا ـ هو وهى ـ عن النافذة، ومدا أيديهما يُحكمان التقاء جناحى ستارتها، ووقفا متواجهين، جامدين، للحظة. . وارتمى كل منهما فى حضن الآخر. ثم إنهما استدارا إلى الداخل ومشيا باتجاه الغرفة. . مرة أخرى على أطراف أصابع الأقدام، وإن كان يضمها إلى جنبه هذه المرة.

فى الغرفة كانت العتمة، زادها إعتاما أنهما أغلقا الباب وتأكدا من إغلاقه، ويَمَّمَا شطر شىء عال يلوح متكوما فى وسط الغرفة ويتبدّى شيئًا فشيئًا مع إيلاف الظلمة. . يتضح أنه تكوين كجمل بارك، بهودج يعلو سنامه، كخباء تسللا إليه فومض من قلبه نور ساطع، توارى على الفور فى أعقاب دخولهما.

كان ذلك هو السرير، وقد وُضع عليه كرسيان وصفان طويلان من الكتب عند الزوايا الأربع، لترفع أربعتها خيمة هذا الخباء المكونة من أغطية ثقيلة شتى. وكانت هناك «أباچورة» تضىء، ومسجل ترانزيستور مفتوح الباب تتناثر حوله أشرطة عديدة. . لأم كلثوم، وفيروز، وفرقة الموسيقى العربية■

ذئاب

قد يكون حلما فظيعًا له قوة حضور الواقع، أو وقعًا غريبًا كالحلم، هذا ما لم أحسمه، ولعلى لن أحسمه أبدًا، لهذا أحاول تحسس حكايتى هذه من جديد، لعلى أتبين فيها حدودًا فاصلة. خاصة أن ذلك الانطباع النهائى ما زال يؤرقنى، ولعله يؤرق كثيرين إذا ما نقلت إليهم ما بلغنى منذ عرفت بنبأ هجوم الذئاب على القرية.

لقد هزتنى الدهشة أكثر من أى أحد لا يعرف حجم الأوهام الرائجة بين الناس عن هذه المخلوفات الحكيمة والزاهدة والمتوحدة إلى درجة الشاعرية، والتى يسمونها بريبة: الذئاب. ذلك لأننى أعرف كم هى نائية بتعففٍ، وأصيلة التماسك داخل قبائلها، أمومية لحد إنكار الذات أمام الصغار، وتأكل من غنائم معارك نظيفة حقيقية، تخطط لها بإحكام، وتفقد فيها الفرائس وعيها مع أول إطباقة للفكوك فلا تتألم. ثم هى ـ أى الذئاب ـ لا تقرب الجيف حتى لو اضطرها الجوع إلى أن تعُشب، وهى لا تهاجم إلا لسد الجوع، وإن كانت الشائخة منها يمكن أن تهاجم بلا سبب، وهذا يجعلنى أكثر استغرابًا.

فلا يُعقل، لا يُعقل، أن يكون هناك قطيع كامل من الذئاب الشائخة ليهاجم على هذا النحو المسعور الذى حكت عنه الأخبار، والذى لم يَثبُت فيه أن الذئاب جَرَّتْ ولو طفلا صغيراً لافتراسه، مما يوحى بأن الهجمة كلها كانت نوعًا من الالتياث الذى دفع القطيع نحو القرية والدخول فى معركة مع سكانها كباراً وصغاراً بالأنياب فى مواجهة الأيادى والسكاكين والفئوس، ولم يدفعها إلى الفرار فى النهاية إلا ظهور البنادق وبدء إطلاق الرصاص.

بخلاف ما أشيع ـ وهو صحيح ـ من أن استخدام المبيدات قد قضى على الأرانب البرية وغيرها من حيوانات تُعتبر غذاء طبيعيًا للذئاب، كان لدىّ افتراضى الذى يشبه هاجسًا لحوحًا، مما دفعنى إلى استعارة جهاز من تلك الأجهزة الكاشفة لاستخدامه، وإن أرجأت التقصى إلى ما بعد استبيان حكايات وانطباعات الناس هناك، خاصة من واجهوا الذئاب بالفعل وأصيبوا أثناء ذلك بجروح مختلفة وتم نقلهم إلى مستشفى البلدة.

لم أجد وضوحًا فى الصورة التى بقيت بذاكرة المصابين، إذ كانوا مروَّعين ما زالوا ولا يمكنهم استعادة أية تفاصيل أكثر من صوت سعار الذئاب وتكشيرها عن الأنياب التى كانت تعقر بتسارع. بينما تكرّرت الإشارة إلى التماع العيون، ولفت نظرى بعض الشىء تعبير لطفلة صغيرة مصابة بجرح عميق فى ذراعها، إذ قالت: إن الذى عقرها هو رجل قبيح له أسنان كبيرة كثيرة، ولم أكن أتصور إلا أن ذلك مجرد تعبير مُوات من قاموس الطفولة المحدود لهذا عبرته بسرعة وقتها.

لم يكن هناك شيء يجعلنى أبدو مختلفًا عن مجموع الصحفيين الذين هبطوا على القرية لكتابة تقاريرهم الصحفية، إذ كانت معى آلة التصوير والمسجِّل، أما ذلك الجهاز فقد أخفيته فى حقيبة الكتف، وبدأتُ عملية المسح من شاطئ النهر، قاطعًا القرية التى تتزخنق بيوتها على الشاطئ، ثم أوغلت فى حقول القرية وراء البيوت، وأخيرًا بلغت الجبل الذى يحدق بالقرية وحقولها على مسافة لا تزيد على كيلو مترين.

لقد واربت فتحة الحقيبة بحيث أتمكن من الإطلال بلمحة على مؤشر الجهاز، وكنت مصيخًا بانتباه وأنا أمضى إلى ذلك الصوت الإشارى «السيجنال» لعله ينبعث فى أية لحظة. ولم يكن هناك أى انبعاث للصوت مع مرورى بالقرية، ثم الحقول، وحتى سفح الجبل. لكننى عندما رحت أمر بهذه المغارات الصخرية فى بطن الجبل والتى يرجّح أنها كهوف تأوى إليها الذئاب وغيرها من حيوانات الصحراء - المترامية خلف سلسلة الجبال - بدأ صوت الإشارة ينبعث ثم يتصاعد، يعلو ويتسارع كأنه سيُجن.

يا الله. أرعبنى هذا الصوت الصغير الذى يشبه زقزقة أبراص لاطية فى زوايا غرف حارة، صوت الإشعاع الذى يظهره الجهاز. هيئ لى أننى شخص ملعون يأتيه الهاجس فما يلبث حتى يتجسد له. ولم يعد هناك أدنى شك فى أن هذه الكهوف التى تأوى إليها الذئاب بها مواد تجرد الجزيئات المستقرة من الكتروناتها فتؤينها، تجنها. فهل هى نفايات مشعة تم دفنها سرًا فى هذه الكهوف، أم أنها مواد أصيلة فى تكوين صخور الكهوف؟!

سؤالان كبيران يمضيان فى طريقين متعارضين تمامًا، ولم تكن لدى إمكانية للإجابة على أى منهما، فاكتفيت، وقد كنت وحدى عند أقدام الجبل، وفى وقدة الظهيرة قمت بإخراج الجهاز ووضعه عند مدخل أحد الكهوف وتصويره فى لقطة مركزّة تُظهر حركة المؤشر، ثم مضيت للمبيت فى إحدى الخيام التى أقامتها إدارة المنطقة للصحفيين وغيرهم، حتى يأتى الصباح، لأستيقظ مبكرًا وأرحل فى أول قطار يتجه إلى العاصمة.

أى صدفة غريبة، أو قصد مريب، جعلهم يسكنوننى فى خيمة أكون بها وحدى، فلا يفصل فى أمر حيرتى آخر أو آخرون؟! هل كنت أحلم حلمًا فظيعًا أم كنت أصحو على صورة فظيعة؟! لقد رأيت ما يوشك أن يكون رجلا بشعًا بأنياب كبيرة وعينين بارقتين، سمعت منه صوت تحرش مسعور. ثم صار الرجل اثنين، فثلاثة، فخمسة. ولم أعد أميز غير حلقة من ذئاب تتأهب للوثوب، وعندما وثَبَتْ هى وثبْتُ أنا، وإذ بى أصطدم بعمود الخيمة فتسقط لمبة الجاز المعلقة بأعلى العمود وتؤجج النار.

كانت الخيمة تشتعل بشراهة وتوهج، وكأنها صُنعت خصيصًا من نسيج سريع الاشتعال، وكان هناك من يمسك بى حتى يمنعنى من الاندفاع نحو النار إذ كنت أفكر فى إنقاذ أشيائى، خاصة الكاميرا والأفلام التى صورتها وجهاز الجيجر. راحت جذوة مسعورة تضىء ما حولها من ظلمة، وعاودنى هاجس الوجوه البشعة، فكنت أرتعش بين أيادى من يمنعوننى من الاندفاع نحو النار.. كنت خائفا من الالتفات والنظر إلى وجوههم■

مصيدة لجسد

يا أنا الخجلان، الآن، اعترف: لقد كنت تهفو إلى بستان «تمارا سرجيفنا». كنت تحلم بقضم التفاحة ولثم الوردة والتمرغ بانتشاء فى طراوة العشب. كانت تجنك وتجعلك تحلق عاليًا وبعيدًا بمجرد ظهورها أمامك.. فى جنبات المعهد أو ردهات المسكن العام. أو حتى فى الشارع. تمارا الجميلة.. العذبة والشهية فى آن، الوجه الحلو المغرى بتورده.. والبدن البادية كنوزه رغم تحفظ الفساتين هادئة الطبع. جنتك بهدوء، وكنت ترتبك حيالها كصبى عاشق. تتحين فرصة البوح بوجل وتتخبط، حتى حانت لك الفرصة لمجرد البدء.

مكثت تترصد أى مناسبة تخصها. أى مناسبة تمنحك التبرير لتتقدم، وفى عيد ميلادها الذى حددته ببحث يوشك أن يكون بوليسيا صرفا.. اندفعت، دعوت نفسك على حفلها الصغير. كنت قد تدربت كثيراً فى خيالك على كل خطوة ستخطوها، وكل انحناءة، وكل كلمة، وكل لثمة يد. وفى ذروة عرضك المحبوك أخرجت علبة سلاحك الأسطورى. العلبة الصغيرة المكسوة بقطيفة حمراء حمرة النار. العلبة التى لم تتصور وأنت تشتريها

من مسارب خان الخليلى مع غيرها أنها ستلعب هذا الدور المراوغ. فتحتها فلمع قلبها المبطن بأحمر الساتان. وعلى حمرة الساتان برقت تميمة النحاس الأصفر وكأنها من ذهب خالص. بالخطوة المحسوبة والانحناءة ولثمة اليد الهامسة، قدمت هديتك، وصوّبت جملة الإيحاء: «من مصر القديمة.. تميمة فيها سر جميل لعامك الجديد الجميل.. سر عمره سبعة آلاف عام»!

«أى سر. أى سر» صوصأت البنات فى الحفل، بينما اكتفت تمارا بالابتسام المتن والسكوت. أدفأتك حماسة البنات لسرّك المزعوم، أحسست أنها مساهمة عارضة تدنيك من هدفك. وأمعنت فى السعى. قلت إنك لن تبوح بالسر إلا لمن صارت لها التميمة. فهذا حقها وحدها «حقها وحدها.. وحدها» كنت تكرر وتلح. وفى توهج الحفل الصغير وروح الفرح المتسامح كففن عنك. كان عقلك يتأمل باندهاش تلك الخرافة التى نسجها عقلك.. أسطورة على قدر التميمة التى على شكل قدم صغيرة تتعلق بكل أصبع من أصابعها واحدة من الجلاجل المنمنمة. فخ مكثت تخفيه حتى تقع غزالتك بين فكيه.

وفى الردهة، بينما كانت تمارا توصلك ممتنة أدارت إليك وجهها الجميل سائلة عن سر التميمة. أجبت بغمز يحتمل النقيضين. قلن إنك كنت تهزل، وأن التميمة مجرد هدية بسيطة من القاهرة لفتاة جميلة من كييف. قلت أنه لا سر هناك، بينما كانت نبرة صوتك واضحة الملامح تؤكد أنك تخفى سراً. كنت تتريث فى الصيد. وتخبىء شباك أسطورتك حتى تتأكد أنها تعلق

تميمتك فى عنقها . وكنت موقنًا أنها ستفعل . . فأنت تعرف أنهن ذوات بساطة متسامحة . وأنها كسائر السوفييت المحرومين من السفر بعيدًا يتيهون بالأشياء الآتية من الخارج .

بعد يومين أبصرت تميمتك معلقة فى جيدها الجميل . فضيقت من دائرة حصارك . . خططت للحظة انفراد بها فى ردهة المسكن . بدا وكأنك تقابلها صدفة . ثم، وكأنك نسيت شيئًا بسيطًا لم تخبرها به . قلت توقفها : «على فكرة» . . وفى دقائق قليلة رميت شباكك . . قلت لها أن التميمة لها بالفعل سحرها الذى عمره سبعة آلاف عام . وزعمت أن هذا ما تقول به كتابات مصر القديمة . فالقدم المعلقة تتأرجح مع كل خطوة وتضرب على الصدر، ومع كل ضربة تهتز الجلاجل وتقول «إليه . إليه . إليه» . سيسمع ذلك القلب وينقله الشريان الصاعد إلى الرأس . وسرعان ما تجدين نفسك مسوقة إليه .

«إلى من؟!» . توقفت تمارا سائلة بارتباك . كان ذلك فى الردهة المبلطة بالباركيه غير المصبوغ . وعلى عتبة النافذة تألقت أوراق شجيرة تين ممتلئة مشدودة . استدارت إليك تمارا بدهشة ووجل خفيف وترقب . فأدركت أنها فى الطريق إلى مصيدتك . ولأنك شعرت بارتباك شديد وكأنك ستختلى بها حالاً . . وجدت نفسك تدفع عن نفسك بعضًا من الارتباك . . تُشتِّت نهاية خرافتك قليلاً، وبما تصورت أنه فى النهاية يفضى إليك وحدك . قلت لها مبتسمًا وقد جف ريقك تمامًا من شدة اشتعال الرغبة : «ستذهبين . . ستذهبين»، وادعيت أن هذا ما تقول به

الكتب الفرعونية القديمة: «ستذهبين إلى من صنع التميمة فى مصر أو من أهداك إياها». وضحكتَ موحيًا أنك تخفف من وقع الخرافة على مسامعها.

ضحكتْ تمارا ضحكة صغيرة، مأخوذة ومرتبكة، وقد احمرّت تمامًا. كنت قد عبأت كلماتك ونبرة الصوت بالظلال التى تصنع دربًا وحيدًا معتمًا يفُضى إلى إيحاء واحد واضح: إلى السرير.. سرير من صنع التميمة أو سرير من أهداها. وكان الاحتمال الأول بعيدًا.. بعيدًا جدًا وراء طوابير استخراج الجوازات، وتحويل العملة، والحجز على الطائرة، والطائرات مشغولة كلها باستمرار رغم أنها جميعًا تقلع شبه خالية. طوابير وراء طوابير وكل طابور يمتد شهورًا. كان كل ذلك مستحيلاً لا يُبقى إلا على الاحتمال الوحيد: أن تذهب إلى سرير من أهداها التميمة.. سريرك، إلى سريرك تذهب، مسوقة بغواية قطعة صغيرة من النحاس ابتدعها عقلك ابتداعًا. وكنت توقن أن ما تبقى بعد ذلك لا يزيد على كونه مسألة وقت.

حتى تستوى الثمرة على فرعها وتسقط بين يديك طوعًا كان لا بد أن تدفع عنك ثقل الوقت. رحت تدفع نفسك دفعًا إلى الخروج حتى لا تجد نفسك ذاهبًا إليها وهى لم تنضج بعد. فتفسد كل شىء. كان عليك أن تمنح الأسطورة وقتا لتعمل. وكنت تمضى الوقت بين المسارح والسينمات. كنت تشترى ما تعثر عليه معروضًا للبيع من تذاكر سينما ومسرح فى الأكشاك المخصصة لذلك عند مداخل محطات المترو وفى أركان الميادين. ولم تكن

تنتقى ولا تدقق ولا تقرأ حتى ما هو مكتوب على التذاكر باستثناء عنوان السينما أوالمسرح. وكانت المفاجأة محسوبة: ما بين عرض جيد أو عرض عادى. إلا هذه المرة التى كنت تتجه فيها إلى مبنى الأوبرا القديمة. . المبنى الفيروزى العتيق البديع فى شارع «الكراسنى أرمسكى».

دخلت. وفى البهو فاجأتك الإعلانات عن العرض. مدهوشًا رحت تقرأ: «استوديو مسرح مازلاتوف اليهودى بكييف. يقدم». ولم تكمل. فقط لاحظت أنه بمصاحبة الكتابة الروسية والأوكرانية كانت هناك كتابة عبرية وشعار شمعدان سداسى الفروع. أثار كل هذا استغرابك، وفضولك، وارتباكك أيضًا. فأنت لم تهيئ نفسك لمثل هذه الفرجة. ثم إن هذا جديد وطارئ على كييف التى أقمت بها طويلاً دون أن تكتشف فيها وجود هذا المسرح.

قلت فى نفسك إنها لا بد بعض إفرازات سياسة جورباتشوف. وأردت بينك وبين نفسك أن تبدو مثقفًا منفتحًا وغير هياب لتأمل «الآخر» وقد فوجئت به أمامك. ليس العرض وحده وإنما أيضًا، وبالضرورة، جمهور المتفرجين. دلفت إلى الصالة دون أن تنسى استئجار منظار مسرح. . كان عتيقًا بلون سن الفيل وحوافه مذهبة. وكنت تتعثر فى طريقك.

كان غريبًا أن تجد نفسك وحيدًا وسط أكثر من خمسة آلاف يهودى. وهل كانوا كلهم يهودًا؟ شغلك هذا السؤال فشرعت فى ضوء الصالة الخفيف قبيل العرض تستخدم المنظار لتتأمل ملامح

المشاهدين فى الأماكن البعيدة عنك وفى البنوارات . لأنه لم يكن لائقًا ولا ممكنًا أن تمعن فى وجوه من كانوا بقربك .

كانت الملامح متباينة ، وثمة مشترك قليل : الحواجب عميقة السواد والشعر الأجعد وبعض الأنوف المميزة والقامات غير الطويلة . لكن ، كان هناك كثيرون بينهم ذوو ملامح روسية وأوكرانية خالصة . سبعون سنة من الاختلاط وعدم العبء بالطقوس لا بد آتت أكلها . قلت فى نفسك ذلك . ثم بدأ العرض .

فوجئت مع انفتاح الستار بستار آخر . شاشة بيضاء مطبوعة بسطور تلو سطور من الكتابة العبرية . . سوداء وشديدة الحضور إذ هى مضاءة من الخلف . فهمت أنها صفحة من التلمود . بدأت ترتفع وترتفع كاشفة عن خشبة المسرح ، لكنها مكثت هناك عند السقف لتظللّ العرض كله ، وكان العرض باللغة العبرية وإن تخللته عبارات قليلة بالروسية والأوكرانية فيها طابع «الإفيه» . وخفف الغناء والتكوين ورقص المجموعات من وطأة عدم متابعة اللغة . كان واضحًا أن العرض يحكى عن عرس يهودى . وكنت تحاول تمييز الخاص فى هذا العرض ، الخاص بمنطق فنى وحسب .

كان عرضا متألقًا وباذخًا بذخًا تعجبت كيف تمتلكه أقلية صغيرة . لكنه لم يكن تراثًا خالصًا لهذه الأقلية . لقد كان خليطًا من التراث الراسخ للمسرح الاستعراضى السوفيتى مع ملامح من هنا وهناك .

خطوات الرقص الشعبى الأوكرانى، وبعض من نغماته اللحنية، إضافة لعبق بحر متوسطى . . أقرب إلى الألحان اليونانية الشعبية. كل هذا فى أزياء مسرح استعراضى رُصِّع بنطاق هنا وطواق يهودية ملونة هناك. وعبر الأوركسترا ذات القوة الأوروبية دسوا سنطوراً ومزماراً وبوقًا. لكن لا بأس.

عرض متألق صُب صبًا فى لغة عبرية. استمتعت بتلاوين العرض. وأشفقت على الأطفال الذين رقصوا وغنوا. فلا بد أنهم عانوا كثيراً ليحفظوا أدوارهم والأغانى بهذه اللغة النائية. إلا لو كانوا يتعلمونها سراً فى البيوت، فأى أطفال؟

وفى الاستراحة خرجت مشبعًا بروح الشفقة هذه. وكنت تتساءل عن صريح رأيك فى حق أى جماعة إنسانية فى التعبير عن نفسها بما يخصها. ولم تكن تعرف ما ينتظرك بعد خطوات قليلة.

خرجت من نور الصالة الشحيح إلى الردهات ساطعة الإضاءة بروح فنى لم يزايلك. روح متسامح. لكنك فوجئت فى غمرة النور بأشياء غريبة. كان هناك من مد الطاولات هنا وهناك فى الردهات. وعلى الطاولات جُهزت مواد الدعاية السافرة، جرائد تتكلم باسم اليهود السوفييت وتتبنى الصهيونية كحركة تحرير لشعب يريد أن يعود إلى وطنه التاريخى! إسرائيل. جرائد «الانبعاث» و«عصر نجمة داود» و«التوافق». ثم كتيبات التعريف بإسرائيل وإرشادات لطالبى الهجرة. وخرائط لإسرائيل تبتلع الضفة الغربية والجولان وغزة وتسميها بأسماء يهودية. هنا وهناك

كانت تباع بادچات نجمة داود وعلم إسرائيل . وكانت الطواقى الصغيرة فى مؤخرات الرءوس تنتشر . وصعقتك المفاجأة .

برق فى عينيك بارق . ثم أحسست أنك على وشك التهاوى منهاراً على الأرض . . أظلمت الدنيا برهة هيئ لك فيها أن قلبك قد توقف . حاولت التماسك . فعادت لك الرؤية . وعدت تبصر من جديد ما صعقك : مئات التمائم - صورة طبق الأصل من التميمة التى اشتريتها من خان الخليلى وأهديتها لتمارا سرجيفنا وشيدت عليها أسطورتك . صورة طبق الأصل زيد عليها نقش لنجمة داود على الوجهين ، وحول النجمة تناثرت كلمات بالعبرية والروسية والأوكرانية لم يستطع بصرك الزائغ أن يقرأها . لكن قلبك المقبوض توقعها .

سألت بينما راح قلبك يخفق وكنت تدارى ارتعاش يديك من شدة الانفعال . وراح البائع الصغير الذى يضع في مؤخر رأسه تلك الطاقية الصغيرة السوداء يشرح لك . . كان يردد فقرات أسطورتك فقرة فقرة . بل بعبارات توشك أن تكون هى نفسها التى نثرتها على سمع تمارا سرجيفنا . لم يتغير شىء إلا جملة البداية ، صارت : «هذه تميمة عبرية قديمة سرها عمره خمسة آلاف سنة» : وجملة الإغواء الأخيرة التى نقشوها بثلاث لغات حول نجمة داود : «إلى إسرائيل . إلى إسرائيل . إلى إسرائيل» .

أحسست أنك تختنق وأن ذبحة ستشق قلبك . وكنت فى حاجة ماسة إلى الهواء المفتوح حالاً ، حالاً ، اندفعت عبر باب الخروج إلى الشارع الجانبى . لكنك كنت فى حاجة إلى أكثر من

شارع جانبى صغير. فجريت إلى الشارع الرئيسى الواسع. شارع «الكراسنى أرمسكى» تريد مكانًا فسيحا تعب منه الهواء، وتتنهد فى البراح. فثمة أسئلة موجعة يلزمها الكثير من الهواء الطلق وبعض الانفراد.

كان للمساء فى شارع «الكراسنى أرمسكى» صفاء موحش. لم يخفف عنك. لم يعطك ما تصبو إليه من الهواء رغم ترامية واتساعه. بل أكثر أنه دفع إلى ذهنك بصورة قول مجنزرات مدرعة رأيته مرة يعبر هذا الشارع فى واحدة من تنقلات الجيش السوڤيتى عبر المدن.

كان للجنازير على أرض الشارع المبلطة بالبازلت صوت موجع يضرس، كأن مفرمة أسطورية تهرس عظام بشر مسفوحين على البازلت. تندفع هذه الصورة إلى ذهنك. وتشعر بأنك ربما أجرمت دون أن تدرى. فكم من الصبايا والنساء اللائى رأيتهن فى الأوبرا سيشترين هذه التميمة. وينزلقن. تندفع أرواحهن المفرغة ـ فى مجتمع الشعارات المفرغة ـ وراء الخرافة. ينجذبن إلى سَفَر ربما لم يفكرن فيه قط بجدية. أو تدفع الخرافة ما اختفى فى دخائلهن من تردد حيال السفر عند أول منعطف من صعوبات حياة تنقلب على نفسها الآن من بلاد السوڤييت، وبموازاتهن سيسافر رجال.. أزواج وعشاق وإخوة. سيكشفون بحس الاحتيال على النفس أن جد جدهم كان يهودى الأم. أو أن أم جدتهم كانت نصف يهودية. تكئات إن لم تكن موجودة سيختلقونها، بالكذب، أو بالرشوة، أو بدونهما. وإسرائيل لن

تقول أبدًا لا . ولم لا . وقود من اللحم النهم يغذى آلة الحرب الصهيونية . قُول مجنزرات تراه يهرس بيوت فلسطينيين صغيرة بيضاء . . يهرس لحم وعظام إخوة لك : أطفال ونساء وشبان وعجائز . سيحرث قول المجنزرات الدموية كل هذا ليبتنى هؤلاء المهاجرون السوفييت بيوتهم فى الجولان والضفة وغزة . هل شاركت فى تجهيز هذا القول الدموى دون أن تدرى؟

سؤال كنت تود لو تجيب عليه توا . ولم يكن هذا ممكنا . فلم تجد أمامك إلا الفرار من شارع « الكراسنى أرمسكى » . . أى «الجيش الأحمر »! لسعتك المفارقة . وأوقفت أول تاكسى ليخرج بك من شارع البازلت الدامى والمجنزرات الدموية تلك .

تأكدت أن تمارا سرجيفنا تعلق تميمتك فى عنقها ما زالت . بل أكثر . . كانت إيحاءات أسطورتك تعمل . وتعمل بسرعة لم تتوقعها . كانت تمارا تتورد كلها بمجرد أن تمر بها هنا وهناك . كانت كثمرة تم نضجها على الفرع وتنتظر القطاف . تنتظر يدك لتمتد إليها أو تنتظر هبة هواء تدفعها نحوك حتى لا تشعر بابتذال نفسها . كانت تتورد وتتوهج بينما بردت أنت تمامًا . كنت تبحث بأرق دائم عن كيفية وصول أسطورتك المختلقة إلى هناك . . كنت تتجسس عليها تقريبًا .

تيقنت أن تمارا ليست يهودية أبدًا . فكيف يمكن أن تكون صهيونية ، وتأكدت أنه لا علاقة لها بيهود صهاينة ولو من بعيد . عرفت أنها ثرثرت مع صويحباتها عنك . لكنها لم تتكلم قط عن أسطورتك . فكيف ذهبت أسطورتك إلى هناك؟ أم أن الأسطورة

لم تكن فى حاجة إليك حتى تصل، إذ أنها قابلة للوجود بآلية الاختلاق ذاته.

وما التطابق إلا صدفة «ميكانزم» واحد تتبعه عقول قديمة. فهل يمكن؟! وإلى هذا الحد من التطابق شبه المطلق؟ تعبت. ولم يكف عنك السؤال. فلم تمد يدك إلى الثمرة الدانية. ولم تسنح لها هبة هواء تدفعها نحوك، لكن الأسطورة كانت تمضى فى طريقها منفردة.. صارت لها حياتها الخاصة.

مثل اللطمة تلقيت بهجة تمارا سرجيفنا التى خرجَت بها عن طور هدوئها وتحفظها المعتادين. أخبرتك وهى توشك على الرفرفة والتحليق أن التميمة فعلت فعلها وأنها ستذهب إلى مصر. لقد حصلت على «كامنديروفكا».. تذكرة رحلة سياحية إلى مصر تقدمت للحصول عليها، ووافقوا، صاروا يتساهلون مع راغبى السفر إلى الخارج. تم كل شىء بيسر خارق.. خرافة.. سحر.. وأخبرتك بموعد سفرها.

لم يكن موعد سفرها إلى مصر هو موعد سفرك أثناء العطلة، كانت ستذهب وحدها، وكنت فى واقع الأمر قد أسلست قيادها لشخص ما مجهول يبيع التمائم أو يصنعها فى مصر. لعله فى خان الخليلى أو فى محال البازار عند سفح أبى الهول. وكانت مؤهلة للانهيار عند أول إشارة تصدر إليها من طرف أصبعه■

العميان

سأدلك على مكانهم، وسيكون مثيراً أن تراهم فى هذا المقهى شبه المظلم يمضغون ساعات عتمتهم على مهل. فعندما تصل وأنت على الكورنيش إلى هذه النقطة المسماة: «ساحة العُمْى» - وهى على مبعدة مائتى متر من مدخل الكوبرى القديم - ستستدير لتواجه الضفة الأخرى من الشارع، وتعبره لتجد على الرصيف بعضًا منهم فى هذه البقعة المواجهة لنوافذ المقهى المغلقة والمسماة - أيضًا - بمحطة «سرفيس العُمْى».

ربما لأن عربات الميكروباص تتوقف عندها وهى بقرب مقهاهم، وربما لأنهم كثيراً ما يهبطون من العربات أو يصعدون إليها فى هذه البقعة. بعد ذلك ستستدير لتدخل فى الشارع الجانبى الذى لا تدخله السيارات، وتتواثب بين مشنات بائعى الذرة المشوى والجميز، وتدور حول عربات البطاطا والترمس والفول السودانى واللب. التى يعمل عليها جميعًا بائعون جائلون من العميان، على الرصيف سيكون باب المقهى أمامك مباشرة إلى اليمين. وربما أنك لن تنتبه إليه بسرعة لأن مصاريعه معظمها مغلق باستثناء ضلفة مواربة تسمح بعبورهم المتردد وهم يدخلون

ويخرجون، فرادى، وغير عجولين. . يتحسسون أمامهم بعصى العميان أو بأقدامهم البطيئة المتوجسة. ادفع هذه الضلفة وادخل دون أن تتهيب الظلمة التى ستفاجئك، لأنك ستعتادها شيئًا فشيئًا بينما أحداقك تتأقلم وتتسع. وبالطبع ستكون قد اصطدمت إلى ما لا نهاية بالكراسى والترابيزات وتعثرت قدماك فى أقدامهم وأعقاب عصيهم التى ركنوها إلى جوارهم. ولا تخش أن تتسبب فى دلق المشاريب الموضوعة على الترابيزات، لأن ذلك لن يحدث أبدًا. فهم فى هذا المقهى يحملون مشاريبهم الموضوعة فى أقداح من الميلامين الثقيل بين أياديهم ومنذ اللحظة الأولى عندما يناولهم إياها جرسون أعمى مثلهم. وهذا الجرسون يحمل إليهم الطلبات فى درج خشبى تمنع جوانبه المرتفعة هذه الأقداح من السقوط أو حتى الانزلاق بعيدًا. وبعد أن تألف عيناك الظلمة فتش عن مكان مناسب تجلس فيه لتتأملهم وهم يميلون على بعضهم البعض ويتحادثون فى خفوت، أو يشردون مسرِّحين أبصارهم الضائعة فى الظلمة.

سيدهشك كثيراً أن ترى كثيرين منهم منهمكين فى لعب الدومينو والطاولة والشطرنج تحسسًا ودون أى خطأ، ولا بد أنه قد حفُرت فى قطعها أو على رقعها علامات فارقة. سيبدو لك المنظر رغم ظلمته وغرابته وديعًا ومسليًا، إلى أن يحدث ذلك الانقلاب الكبير فى المقهى، والذى يمكن أن تجرب أحداثه بنفسك، أو لعلك تفضل أن تكون مجرد مشاهد له إذا لم تسمح لك روحك بمثل هذا الهذر القاسى.

وإذا كانت روحك تسمح فإننى أوصيك أن تستبقى ذلك للنهاية. لأنه سيتوجب عليك حينئذ أن تفعل فعلتك وتفر وإلاّ أمسكوا بك ـ وهم يستعيدون وعيهم سريعًا ـ وفتكوا بك شر الفتْك. فلتكتف إذن فى البداية بالمشاهدة، برؤية لعبهم الغريب هذا، وتأمل شرودهم المرير. شرود وجوه لا عيون فى محاجرها، لكنها تعطيك أشد الانطباع بتحديقها فى زمن بعيد، زمن كانت لهم فيه عيون وأبصار.

* * *

كان ذلك فى أيام أحد المحافظين السابقين والذى اشتهر بين الناس باسم «أبو بطن». وقد كان رجلاً طويلاً وعريضًا وأكرش، وكان ضعيف البصر جدًا حتى قيل إنه لم يكن يرى أبعد مما تمتد يده التى يأكل بها. وقد كان شرهًا ونهمًا حتى أشيع أنه كان يحمل دائمًا فى جيوب ستراته الفخمة أدوات طعام كاملة: سكين وشوكة وملعقة ومجموعة من أعواد تسليك الأسنان. كل هذا ليكون مستعدًا للسقوط ببهجة على أية مأدبة يُدعى إليها.

وفى هذا الشأن قيل إن امتلاك قلبه كان لا يتأتى إلاّ عن طريق امتلاء بطنه، ومن ثم كانت تنهال عليه الدعوات إلى المآدب بلا انقطاع. يوجهها إليه المقاولون الطامعون فى رسو مشروعات المحافظة الوهمية على شركاتهم الوهمية، وأصحاب الثروات المفاجئة الذين يريدون تبوير أراض زراعية للاتجار فيها كأراض للبناء، وطلاب القروض الضخمة بلا ضمانات من البنوك المحلية، والراغبون فى احتكار الأراضى المستصلحة دون أية نوايا

لزراعتها، وعشاق امتلاك الفيلات والشقق المطلة على النيل أو على شاطئ البحر بأسعار حكومية، رمزية، وحتى تجار المخدرات الذين يريدون أن تغض الشرطة الأنظار عنهم. هؤلاء وغيرهم من أصحاب المطامح والمطامع كانوا لا يكفون عن توجيه الدعوات إليه. وكان يلبيها جميعًا حتى أنه اختص مدير مكتبه وسكرتيره الشخصى بأن يقوم بالتنسيق بين الدعوات لتشمل مواعيدها الوجبات الثلاث وتمتد لعدة أيام مقدمًا، وقيل إن امتدادها لم يقل أبدًا عن شهر كامل.

لقد كان يجد فى طعام المآدب مذاقًا طيبًا يفوق مذاق أى طعام يعد له فى قصر المحافظ الذى يقوم على خدمة المطبخ فيه عشرة طهاة مهرة يرأسهم كبير طهاة موروث من العهد الملكى ومنقول من أحد القصور الملكية بعد ذهاب الملك.

ولم يكن الطعام فى قصر المحافظ يكلفه شيئًا لأنه من المزايا العينية التى تُدفع من ميزانية المحافظة تحت بند الضيافة، لكنه مع ذلك ظل يفضل طعام الولائم والمآدب التى يُدعى إليها ولو فى مراكز وقرى وكفور بعيدة. قيل ذلك وقيل أكثر من ذلك، لكن المرجّح أن هذا الدخان لم يكن أبدًا دون نار، بدليل المنظر الذى ظلت عليه شوارع المدينة فى عهده: مبقورة البطون دائمًا وأحشاؤها خارجة منها بدعوى إصلاح شىء ما فيها، لم يكن ليتم إصلاحه أبدًا. حفر، وردم، ورصف، وحفر من جديد، وهكذا بلا انقطاع كأنه كان يتألم من ترك مقاولى الحفر والرصف بلا عمل، فكان يبتكر لهم عملاً. ولعلهم كانوا يولمونه لشفقته هذه عليهم.

أما وليمة الولائم فقيل إنها تلك التى سبقت ظهور مشروع إزالة مبنى المكتبة القديمة والحديقة الصغيرة على شاطئ النيل فى مواجهة المقهى العتيق.

سرت الإشاعة أولاً بأن هناك مشروعًا لإقامة جسر علوى فوق مدخل الجسر القديم ليوفر سيولة أكثر لحركة السيارات المتكاثرة على الكورنيش ولما طُرحت البدائل، كتوسيع المشاية المحاذية للنيل وتوسيع شارع الكورنيش نفسه على حساب الأرصفة، انتفت ضرورة الجسر العلوى، فقيل إن هناك مشروعًا آخر لبناء فندقين سياحيين كبيرين من طراز الأبراج السكنية على النيل، أحدهما يواجه الآخر على جانبى مدخل الجسر القديم. . واحد بمكان المكتبة القديمة، والآخر بمكان الحديقة الصغيرة. ولم يكن هناك من أبناء المدينة من يصدق ذلك كله أو يريد تصديقه، خاصة وقد أظهرت الجسات الأولى التى أجراها أساتذة كلية الهندسة فى الموقع أن التربة رخوة ولن تحتمل أى ثقل عليها، وستنهار وينهار فوقها هذا البرج المزمع إنشاؤه هنا أو هناك. لأن الموقع ما هو إلاّ أثر رسوب طمى الفيضانات القديمة على الضفاف، تراكم فى طبقات وارتفع مكونًا جسر النيل. وإذا كان قد أمكن للبقعة التى تقوم عليها المكتبة أن تحتمل، فهذا راجع إلى أن مبنى المكتبة خفيف، فهو من طابق واحد جله من الخشب وسقفه المائل من رقائق القرميد. أما موضع الحديقة الصغيرة فهو متماسك بفعل جذور شجيرات تين الزينة المنتشرة عليه وبساط النجيل والزهور المفترش إيّاه، وبشكل أساسى يعود تماسك تربة هذه البقعة إلى

الشجرة الكبيرة التى تضرب بأوتاد جذورها عميقًا، فتقف على عدة طبقات من الأرض تقبض عليها تشعبات شبكة الجذور.

* * *

فى جوف الليل وبينما المدينة نائمة أمكن نقل محتويات المكتبة التى تُقدّر بمائة وخمسين ألف كتاب إلى سراديب مهملة تحت واحد من المبانى المملوكة للمحافظة. وشاع أن المخطوطات النادرة ومجلدات الدوريات القديمة العزيزة والكتب الثمينة المجلدة برق الغزال والمزينة بماء الذهب والفضة، وآلاف الكتب الثرية فى لغات شتى، جميعًا كانت تحمل فى أكوام وتنقل بكراكة إلى ظهور عربات القمامة التى تشدها البغال، أو تلك ذات الصناديق القلابة المملوكة للبلدية التى أنيط بها أمر نقل محتويات المكتبة. تم ذلك فى ليلة واحدة.

وفى الليلة التالية تكفل بلدوزر واحد بتحويل المبنى القديم الجميل - من الخشب المدهون بلون سن الفيل والسقف القرميدى الأحمر - إلى كومة من الأنقاض لا تساوى شيئًا تمت إزالتها فى النهار أمام عيون أبناء المدينة الذين تجمعوا ووقفوا يهمهمون متحسرين على ضياع قطعة جميلة عزيزة من ملامح مدينتهم، وظلوا مع ذلك رافضين أن يصدقوا أن الدور ذاهب إلى الحديقة ليدمرها، ويدمر الشجرة الكبيرة التى تتوسط الحديقة. الشجرة التى تقف فى قلب ذكريات صباهم جميعًا وقلب ذكريات المدينة.

* * *

قيل إن عبد الله النديم تسلل إليها فى أيام هروبه الكبير بفلوكة عبر النيل . . تشبث بالبوص الطالع على الضفة وصعد إليها، وهناك ارتقى درجًا محفوراً فى جذعها الضخم إلى تلافيف غصونها حيث اختفى عن عيون مطارديه أيامًا . وكان يكرر الفرار إليها كلما أحس بالخطر يقترب منه والحصار من حوله يضيق . وقيل إنه فى أيكة بين غصونها كان يستريح، وفى هذه الأيكة كتب شيئًا من مؤلفه «كان ويكون» الذى أسماه فيما بعد «تاريخ مصر فى هذا العصر» .

وعلى ارتفاع كبير لكنه منظور على جذعها يوجد حُز غائر لتاريخ محفور بضخامة هو ١٩ مارس ١٩١٩، يقال إنه يرجع إلى تاريخ يوم من أيام الثورة وذكرى معارك فى الشوارع مع جنود الاحتلال، وموقعة ربط فيها أبناء البلد سلكا معدنيا متينا وشدوه عبر الشارع على ارتفاع أعلى من رءوس الخيول وثبتوا طرفه الآخر حول عمود من أعمدة المقهى القديم فحصد السلك فصيلة كاملة من الخيالة المنطلقين بالرماح والبنادق فى أعقاب مجموعة من الثوار خططوا بدقة لاستدراج الخيالة إلى هذا الكمين . ولعل ذلك كان ثأرا من جنود الاحتلال بعد يوم واحد من مجزرة ١٨ مارس التى أطلق فيها الجنود النار على مظاهرة للطلاب فقتلوا عشرين طالبًا أو يزيد .

وأعلى من الأثر السابق، على جذعها، يوجد أثر قديم يرجعه العارفون إلى سنة ١٧٩٨ وهو كتابة بالفرنسية تقول «خاب سعيك يا دوجا . . لن نسلم مصطفى . . لن نسلم العدِّيس» وهى موجهة

على الأغلب إلى الجنرال «دوجا» الذى عينه الغازى «نابليون» قومندانا على المدينة ومديريتها وأرسله لقهر أهلها والقبض على المحرضين فى حادثة يوم السوق التى فتك فيها الأهالى بجنود حامية المحتل جميعًا، وتذكر كتب التاريخ أن المدينة لم تسلم ولديها المطلوبين: «على العديس» و«مصطفى الأمير»، رغم أن دوجا روّع الناس وقطع رءوس عدة رجال من أبناء المدينة وجعل جنوده يطوفون شوارعها حاملين الرءوس على أسنة الحراب.

وبعيدًا عن كل الآثار المحفورة على جذعها يُحكى أن أم كلثوم غنّت تحت غصونها المرصعة بأنوار الكلوبات فى عهدها الباكر. وشدا السنباطى بأول ألحانه فى سرادقات الطرب التى كانت تُقام فى نطاقها. وفى ظلها جلس الدكتور هيكل يومًا وتأمل النهر والمدينة وأسماها «باريس الشرق». وأنشد على محمود طه قصائده الأولى فى جلسة شعراء المدينة ساعة العصارى قرب جذعها. وتوقف ركب عبد الناصر بإشارة منه تحتها حيث رفع وجهه المتهلل إلى أغصانها وحيا طويلاً إذ كانت الأغصان التى تظلل عرض الشارع مثقلة بالبشر يهتفون باسمه عندما زار المدينة. وتغير مسار موكب السادات فى اللحظات الأخيرة عندما جاء زائرًا حتى لا يمر تحتها، إذ شاع أن قناصًا يكمن له بين أغصانها العصية على التفتيش.

وما من عاشق صغير إلا وحفر على جذعها اسمه واسم محبوبته فى هذا الرسم الشهير للقلب المرشوق بسهم الحب. وما من صبى تعلم كتابة اسمه إلاّ وحاول حفره عليها عندما مر بها.

وكانت تصعد، تفسح مكانًا لقلوب أخرى وسهام حب أخرى، وأسماء، وتصعد. ولا تخلع عن لحائها رقائق الذكرى ولا التواريخ أبدًا. وعلى غير عادة الكافور. فهى كافورة وإن حملت فى مظلة أغصانها الواسعة من كل الأشجار، حتى لقد قيل أن هناك من طعّم فروعها بأغصان من كل أشجار الشوارع المصرية فاحتملتها وأمدتها بعصارة الحياة. طولها يتجاوز أقصى طول للكافور. فهى أعلى من أعلى فناطيس المياه وأعلى من عمارة سرور الشاهقة. وقمتها لا يدركها إلا بصر من ينظر إليها من نهاية شارع الكورنيش. أما جذعها فقد كفاه بالكاد فصل كامل من الأولاد كانوا فى رحلة مدرسية، وراق لهم أن يشبكوا أياديهم معًا حتى يحيطوا بالشجرة. هائلة الظل حتى يغطى ظلها عرض الشارع كله ويفيض على الضفة والمياه. ودائمة الخضرة وإن تلونت مع المواسم بألوان من زهور شتى لعلها ترجع إلى ما تستضيفه من أغصان.

ففى بواكير الربيع تكشف عن زهور الفتنة التى تشبه شموسًا صغيرة عطرة يطوف بها نحل العسل البرى. ومع الفتنة تظهر عناقيد زهور السرسوع ومراوح زهور ذقن الباشا والچكراندا البنفسجية الهفهافة. بعدها تشتعل البونسيانة الحمراء البرتقالية وتزهو المانوليا البيضاء.

يتسلقها اللبلاب وبهجة الصباح. وتنبت عند أقدامها الراسخة كسبرة البئر اليانعة الهشة. ومع ورقها العطر تتساقط عبر المواسم، دون أن تفقد خضرتها أبدًا، قرون بذور السنط وثمار النبق

والتوت والجميز، كل فى مواعيده، مع أوراق صفصاف رقيقة، وحور أبيض تشبه الأكف، وأكاسيا منمنمة!

* * *

شجرة الشجر التى لم يرد أحد تصديق أنهم سيقطعونها حتى بعد أن أتوا على كل أشجار الفيكس الصغيرة التى تسبقها. نشروا جذوع الفيكس من أسفل وتركوها مرمية على رصيف الكورنيش كقتلى ممددين فى تتابع حتى يَفرغوا لتقطيع الجذوع وهى على الأرض إلى قطع يسهل نقلها. وعندما آبت فى آخر النهار عصافير الدورى التى تسكنها بدت معذبة وحيرى. ظلت ترفرف فى سحابات معلقة بقرب الأرض فوق رءوس الأشجار المرمية على جنوبها. ظلت تحاول التعرف على ما حدث لبيوت سكناها المنكفئة على هذا النحو الغريب. وكانت تقترب لتدخل فى مآويها لكنها سريعًا تتراجع وتظل معلقة فى الهواء القريب من الأرض، ترفرف.

وعندما هبط الليل نامت العصافير متعبة على درابزين الكورنيش. وعلى حافة الرصيف، وطار بعضها ليبيت على الأسطح وأفاريز المبانى فى الضفة الأخرى من الشارع، لكنها لم تهبط قط إلى رءوس الأشجار المقطوعة على الأرض. وفى الصباح لم تسع باتجاه القرى كعهدها، بل ظلت فى مواضعها حتى ليقال أنها كانت تُمسَك بالأيادى وتدوس فيها الأقدام. وكان عمال البلدية يكشحونها كشحًا حتى يتمكنوا من الإعداد لما سيحدث للشجرة الكبيرة.

* * *

وقف عشاق الشجرة يراقبون الأمر من الضفة الأخرى للشارع، وكان عددهم يقدر بالآلاف. ثم أتعبهم الوقوف فانصرف من انصرف وبقى أكثرهم عشقًا للشجرة وارتباطًا بها. . بضع مئات افترشوا الأرض أو جلسوا على الكراسى التى أخرجت من المقهى القديم إلى الرصيف. مكثوا ينظرون إلى الشجرة بعيون حزينة ويهمهمون فى خفوت، بينما كانت تنتشر حول الجذع الضخم ثلاث سيارات مطافئ بسلالم متحركة. ارتفعت السلالم حاملة على أطرافها عمالاً ممسكين بمناشير كهربائية، ومن هناك بُدئ بقطع الأغصان الطرفية البعيدة.

كانت الأغصان تهوى قطعًا قطعًا وبغزارة حتى أنها غطت أسفلت الشارع بركام مرتفع من الأغصان الممزقة وفى بضع دقائق. انقطع الطريق تمامًا وتم توجيه المرور إلى الشوارع الخلفية. كانت الشجرة تتعرى مرغمة. تتعرى فى تسارع. وكانت الطيور الليلية التى تهجع فى النهار تنكشف فى مراقدها وهى مباغتة بذلك الانكشاف. كروانات الليل الرمادية والواق الأبيض وطيور المُلّيحة وصقور الغروب، كلها كانت تُباغَت بالانكشاف وهى تنعس فى أماكنها على الأغصان فترتبك ردود فعلها.

بعضها يسقط دون حركة من جناح وكأنه قطع من حجارة تهوى، وبعضها ـ ككروان الليل ـ أطلق صفيره العذب كأنه يغنى فى قلب الظلمة. لكن سريعًا ما بدأ الانتباه وراحت الطيور الهاجعة تفر فرارًا جماعيًا من الشجرة وتلوذ بالأماكن المرتفعة

القريبة: أسلاك الكهرباء والهوائيات وحواف الأسطح وأعتاب النوافذ ومظلاتها البارزة والأفاريز.

وكانت الأوناش قد ربطت الشجرة من فروعها العالية والعارية في عدة مواضع بمجموعة من الأسلاك والحبال المتينة لتنشد بقوة البلدوزرات في اتجاه واحد، بينما كان هناك منشار كهربائي شديد الضخامة يعمل في الجذع. وبعد أن تجاوز المنشار ثلاثة أرباع قطر الشجرة بدأت البلدوزرات تزمجر وهي تَشدُّ، بصعوبة في البداية تشد، ثم كان الميل المخيف. جبل يوشك أن يهوى، بينما العمال يفرون من حوله. عشرات السنوات تسقط. عمر كامل، بل أعمار عديدة.

وحدث الصرير الهائل المخيف والطقطقات التي طمست من حولها كل صرخة أو شهقة أو سباب. أغمض كثيرون أعينهم من هول المنظر وانكمشوا على أنفسهم وارتعشوا بأثر القشعريرة التي سرت في الهواء لحظة، وارتطم زمن كامل بسور الكورنيش الحديدي فهشمه وتحطمت بلاطات الرصيف الخرسانية وانصكت الأسماع. وكان كل شيء يرتج.. كل شيء.. الأرض والرصيف والمباني، ولعل هذا هو ما أفزع الطيور.

* * *

لم تعد الطيور إلى أماكنها التي كفت عن الارتجاج بعد أن تمددت الشجرة بطول الشارع وسكنت حتى يقطعوها. أخذت الطيور تهوم في سماء الشارع الخفيضة بلا انقطاع وكان الوقت

عصراً. اختلطت عصافير الأمس الشريدة بطيور الليل التى استيقظت قسراً فى النهار.

وكانت الطيور الآيبة تجيء وتكثر وتدخل فى هذا المرجل الذى يغلى فى سماء الشارع وترتفع درجة غليانه. عتمة غريبة بدأت تخيم مبكرة على المكان بينما الشمس لم تغرب بعد. ومكث مراقبو النهار فى أماكنهم على الرصيف يستغرقهم الفضول ويمسك بهم شيء من وجل. ثم اشتعلت السماء. بدأت الطيور تتقاتل فتتوحش الأصوات: الصدح والشقشقات والزقزقات والهديل والنعيب والصراخ وخفق آلاف الأجنحة المهتاجة وضربات المناقير. ثم راحت تتساقط من سحابة الطيور المتقاتلة فى سماء الشارع قطرات دماء ساخنة لتصيب الرءوس والوجوه والأيادى. كان شيئًا لا يمكن تصديقه لكنه يحدث.

وفى أعقاب مطر الدم الهاطل من أعلى، بدأ الانقضاض. هبطت سحابة الطيور المشتعلة بنيرانها إلى قلب الشارع. ولعل ردود أفعال الخوف البشرى هى التى زادت من هياج الطيور ووجهته إلى البشر. كان معقولاً أن تنهش الطيور الأيادى والأذرع التى تلاطمها، لكنها بدت مصرّة على اختيار وحيد غريب. كأنما جرى بينها اتفاق وتحدّد قصد.

راحت المناقير تندفع فى تصويب خارق نحو العيون. فقط العيون. تخترقها وتغوص فيها وتنهش. وتبعد عنها الأيادى بضربات جارحة لحوح إذا ما أعاقتها لتواصل النهش. كان رعبًا

من صراخ ورفرفة وملاطمة أياد وركض أقدام واندفاع مناقير دموية.

ولم تكن ظلمة الليل هى التى حلّت أولا لكنها ظلمة الأبصار هى التى راحت خاطفة تحل. ومن عالم آخر النور كانوا يحتفظون بانطباع لآخر الصور المفزعة: رفرفة أجنحة رمادية ليمام متوحش، وتيجان هداهد شرسة، وعيون كبيرة لصقور جرّاحة، ووجوه كهول لطيور البوم والرخمة. لكن أكثر الصور إفزاعًا كانت لعصافير الجنة وأبى اليسر والدورى الصغيرة والشراشير. مناقير مناقير مناقير. مناقير كحراب مدببة وآلام كالبروق. ثم كانت ظلمة ولا شىء غير أصوات طيور مهتاجة ورفرفة أجنحة وصرخات بشر يتلاطمون. ولم يجدوا فى هذا الوقت مكانًا قريبًا يحتمون به غير جوف المقهى القديم الذى اندفعوا إليه بغريزة تحديد الاتجاهات الصاعدة لتوها من قرارة عتمتهم المباغتة.

* * *

لم يحسوا بالنور داخل المقهى، ولا أبصروا بياض رخام الترابيزات، ولا بريق الطقاطيق النحاسية المجلوة. كان ظلامًا هائمًا أخذ يستقر ويرسخ حيث اكتشف صاحب المقهى مع الأيام عدم حاجتهم إلى النور وهم يشكلون السواد الأعظم من الرواد. ثم صار المقهى وقفًا عليهم لا يكاد يدخله مبصر. كف صاحب المقهى عن إشعال المصابيح التى ما زالت تتدلى فى مشكاوات منطفئة.

وشيئًا فشيئًا لم تعد هناك ضرورة لفتح النوافذ المطلة على

الكورنيش. وصار واضحًا أن فرجة صغيرة فى الباب الموارب كافية لاستيعاب تقاطرهم المتوجس المتباطئ وهم يتواردون فرادى. ورأى صاحب المقهى مناسبة تشغيل جرسونات من العميان المحنكين وتحوير كل الأدوات لتناسب هذا العمى. حتى الباعة الجائلون أمام المقهى صار يرحل المبصرون منهم ليحل بأماكنهم آخرون من العميان دون تدخل من أحد. عميان عميان عميان. عميان حول المقهى وفى داخله. عميان ينطوون فى تكتم على رعب هائل لم يبرحهم قط. وتستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسك لو أحدثت هذا الفعل الصغير المعابث أو اصطبرت قليلاً لترى غيرك يحدثه.

* * *

يتكرر الأمر كثيراً حتى أنه لا بد يحدث كل ليلة. يأتى واحد من الفتيان الهازلين ويقف فى حذر وضحك مكتوم على عتبة باب المقهى من الخارج. يمد بوزه داخل المقهى محيطا إياه براحتيه على هيئة بوق. وعبر البوق يطلق صيحة من تلك الأصوات: «صوصو صوصوش ش ش ش فررهر هر هر هره». يحاكى صوصوة وشقشقة عصافير ورفرفة أجنحة فيتفجر جنون هلعهم. يبدون كأنما تمشطهم موجة واحدة صاعقة من الرعب يأتون معها بنفس ردود الأفعال الفزعة. يرفعون أذرعهم ويخفضونها حول رءوسهم فى تضارب بينما أياديهم الضريرة تتخبط مرتبكة أمام وجوههم لتحمى عيونًا لم يعد لها وجود فى المحاجر، وتتماوج

أجسادهم وهم وقوف كأنهم غرقى يصارعون الغوص فى قيعان لا قرار لها.

وفى هذا الفزع الشامل كانوا يتركون كل شىء ليهوى أو ينقلب أو يتناثر.. أقداح المشاريب وقطع الدومينو والطاولة والشطرنج ورقع اللعب وعصيهم والطقاطيق النحاسية. كل هذا بينما تنطلق من أفواههم الفاغرة صيحات الفزع والشهقات وبعض السباب اليائس.

وما أن تنجلى هذه اللحظة بعد اكتشافهم لزيفها حتى تجدهم يندفعون معًا مثل سيل وحشى نحو مصدر الصوت الزائف ليفتكوا به. لكنه يكون قد ذاب مخلفًا وراءه صدى ضحكات عالية تجرى مصحوبة بجمع من ضحكات أخرى عابثة ودبيب مجموعة من أقدام لاهية تفر بعيداً. ربما تجتاحك فى هذه اللحظة مخاوف أن يفتكوا بك كواحد من المبصرين يجلس بينهم. لكن لا. تأكد أن حقدهم مصوب بدقة فائقة يصنعها ما بقى من حواس شحذها فقْد الإبصار. ستراهم يحددون مكان وقوف العابث عند الباب بالسنتيمتر وبالمليمتر وكأنهم يشمون بقايا رائحته فى المكان أو يلتقطون صدى أنفاسه أو صوت احتكاك أقدامه بالأرض وهى تفر. وستمضى دقائق حتى يوقنوا بفوات الأوان للإمساك بالعابث وعدم جدوى تجمعهم عند الباب. سيعودون إلى أماكنهم السابقة نفسها بدون أى خطأ. وسيعيدون كل شىء إلى مكانه السابق بدقة وكأنهم يبصرون فى الظلمة. رقع اللعب والقطع الخشبية والطقاطيق والكراسى. لن يخسروا غير بقايا المشاريب المسكوبة

على الأرض. وسيطلبون مشاريب أخرى يحتسونها ببطء وهم يطلقون زفرات حرّى. زفرات كأنها تذيب جدران الزمن الغامضة وتصل بهم إلى ذكرى زمن بعيد. أيام كان لهم فيها عيون وأبصار، ونهارات مضيئة، وليال ترصعها أقمار وأهلة، ويوشيها ألق النجوم■

ـ ٢ ـ

سيكولوچيات

ومع ذلك.. ورغم ذلك

قبل أن أطفئ النور لأنام، أحرص على جمع كل ما يمكن أن يكون متناثرًا فى الحجرة ومكشوفًا أمامه، هذه الأشياء المدببة والحادة والقاطعة، كالمدى، وشفرات الحلاقة، وسكين فتح الكتب، حتى الأقلام، باختصار، كل ما يمكن أن يقع فى يده لحظة يمضه الأرق ويستخدمه فى ذبحى من عند حبل الوريد، أو طعنى فى الموضع الضعيف المؤدى مباشرة إلى القلب ـ من بين الضلوع ـ كما أتخيله دائمًا يفعل.

أجمع كل ذلك وأضعه فى أحد أدراج الخزانة، ثم أغلقه، وأوصد عليه الضلفة، وأخفى المفتاح فى كيس الوسادة تحت رأسى، هذا، حتى يطلع الصبح ويغمر النور الغرفة فأستيقظ وأكون منتبهًا إليه. ذلك الانتباه الذى لم يقف بى قط على حد كراهيته، فأنا أوقن أنه لا يكرهنى، بل على العكس، أوقن أنه يحنو علىّ حنوًا عميقًا عمق الشفقة التى يكنها لى من الاستمرار فى مثل هذه الحياة، والتى قد تكون دافعه الوحيد للفعل، الفعل الذى يظل رغم ذلك يرعبنى.

أتأكد من دافعه الشفوق ذلك عندما تحين اللحظة المعتادة ليواجه

كلّ منا الآخر قبيل الخروج إلى الشارع. وفى نور الصبح الأبيض المزرق المتدفق عبر النافذة أتمكن من رؤية العذاب المترقرق فى عينيه الصاحيتين لتوهما بعد نوم مضطرب. . نوم ممزق بأحلام الرغبات المحبطة، والمخاوف التى تستحيل دومًا إلى كوابيس.

أنظر فى عينيه مباشرة بإحساس يتصاعد بالشفقة إلى حد الابتسام، فيبادلنى الابتسام الشفوق، وما يلبث ابتسامنا المتبادل حتى يأخذ شكل برهة من الرضا، هذا الرضا الذى يَسرُّ دون كلام أن: مع ذلك، ورغم ذلك، يظل وجودنا فى هذه الَحياة على تكاثر آلامها وتضاؤل وابتعاد أصغر الأمانى فيها. . يظل جديراً ببعض الفرح. . على الأقل فرح التنفس من هواء الصبح الطازج كل يوم من جديد. أليس كذلك؟

أليس كذلك؟ أسأله بإيماءة مبتسمة فيجيب علىّ مبتسمًا بمثلها، ثم أكرر سؤالى بصوت مسموع وأنا أستدير متأهبًا للخروج، لكن إجابته لا تأتينى. فيبدو لى وكأنه تبخر مع سريان تيار الهواء الصباحى الذى اكتسح كتمة الغرفة آتيًا من النافذة المفتوحة إلى الباب المفتوح.

وأفكر فى أنه قد اختفى أيضًا من صفحة المرآة التى استدرت للتو عنها■

يوسف إدريس

بدا لى أن صوت جرس الباب ليس هو الصوت الذى سمعته عندما زرته آخر مرة قبل سفرى، منذ ثلاثة أعوام. وعندما انفتح البـاب فـوجـئت بصـوت مـخـتلف يرحب بى قـبـيل أن أبصـر صاحبه: «أنت فين يا راجل. فى انتظارك من زمان»!

لم يكن يوسف إدريس، بل كان شخصًا آخر دقيق البنية، كهلا وأصلع، لكن ابتسامة وجهه الحافل بالترحيب لم تترك لى فرصة للتراجع. خاصة وقد تأكدت أن الطابق هو الطابق ورقم الشقة هو الرقم. ووجـدتنى أمـد يدى إلى يده الممـدودة مـرددًا: «آه.. صحيح.. صحيح.. ثلاث سنين غياب».

تصورت أن الرجل قريب أو صديق ليوسف إدريس، وفتح لى الباب حتى يجىء، ولا بد أنه ـ يوسف إدريس ـ عرّفه بشخصى وأخبره بمجيئى فى السابعة.. إذ كنت قد حادثته تليفونيا ودعانى لزيارته فى هذه السـاعـة، لكن خطواتى الأولى داخل الشـقـة ضاعفت من استغرابى.

كان تكوين الشقة هو التكوين: الأنتريه فى الصالة المفضية إلى الشـرفـة المقـفلة، والأبواب على اليسـار.. لكن.. أين امـتـداد

المكتبة فى الصالة، وحديقة نباتات الظل التى تملأ الشرفة صاعدة من الأرض أو متدلية من السقف. ثمة شيء مختلف!

لم ينقطع الرجل الدقيق عن الترحيب بي وهو يدعونى إلى الجلوس ويسألنى عما أشرب. وعندما ذهب لإعداد القهوة لاحظت أن مدخل المطبخ يفضى إلى أثاث قديم داكن، مختلف. والشقة كلها تنم عن فراغ، وإضاءة معتمة. فأين أفراد الأسرة؟ ويوسف إدريس نفسه، وقد أخبرنى أنه سينتظرنى فى السابعة؟!

أحضر الكهل الدقيق الأصلع فنجانين من القهوة على صينية قديمة مقشورة الطلاء عند الأطراف، وكان متهللا باحتفالية وهو يقدم قهوتى ويأخذ قهوته، ويسألنى عن الطقس، وينطلق فى ثرثرة فرحة عن نزق الإنسان تجاه الفصول. ثم سألنى إن كنت أحب أن يفتح لى التليفزيون أم لا، واعتذر عن أنه لا يمتلك جهازا للفيديو، رغم أننى لم أسأله عن ذلك.

فتح التليفزيون العتيق الذى كان يذيع برنامجا من المنوعات الغنائية، وبدا مستمتعًا للغاية بكل ما يذاع، وينظر نحوى مشجعًا على الاستمتاع بما يعرض على الشاشة. ولابد أنه لاحظ قلقى إذ مد يده وربت على كتفى مهدئا وهو يردد: «عشر دقايق. . كلها عشر دقايق».

أدرك استغرابى عندما أدرت إليه وجهى، وعاجلنى شارحًا: «عشر دقايق. . كلها عشر دقايق. . ويوسف إدريس موش ها يزعل لما آخذ منه بعض أصحابة شويه. . نتكلم. . عشر دقايق موش كتير فى الزمن ده. . وهو موش ها يزعل. . هو ما

يعرفنيش صحيح، لكن أنا عارفه . . هو أديب كبير وبنى آدم قوى . . هايفهم ويقدّر . . سلم لى عليه والنبى وبوسهولى» .

كنت مدهوشًا حتى أننى لم أهبط بالمصعد، وقادتنى قدماى إلى حلزون الدرج، فالمدخل، فالبوابة، ثم الشارع، فالبوابة المجاورة، والمدخل الآخر . . تطابق شبه مطلق بين تكوين العمارتين المتجاورتين . . حتى المصعد، والردهة، وأرقام الشقق، وباب الشقة هناك، إلى اليمين عند الصعود . لكن اللافتة الصغيرة على الباب، لابد أنها ثبتت حديثًا إذ لم أرها من قبل، وعليها . . بخط أبيض علي خلفية داكنة قرأت : «يوسف إدريس» .

ومددت يدى منفعلا، لأضغط جرس الباب■

معانقة العالم

ارتعبت لرؤية ذلك الهبوط البطيء المحكم للظل الغريب على شيش باب الشرفة من الخارج. كنت مؤرقًا وحدى فى جوف هذه الشقة الخالية المظلمة، فى قلب سكون الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وبدا لى أن الظل لكفين غريبتين مقروطتى الأصابع تهبطان بمهارة مخيفة على أحرف الخصاص.

خطر لى أننى إزاء تجلٍّ غريب لكائن خرافى يتجه نحوى. لكن خوفى تراجع مع استمرار هبوط الظل ثم اكتماله. تبينت أنه ظل قدمين عاريتين لشخص ما يتسلل هابطًا من حافة السطح إلى الشرفة.

رحت أفكر بأسى ساخر فى لذع المفارقة. فى كونه لم يقدم على ذلك لابد إلا بعد مراقبة طويلة للشقة التى ظنها خالية. لم يكن يتوقع أننى بداخلها أعيش أيامًا عديدة دون أن أوقد نورًا أو أفتح نافذة. وأكتفى بما يتسلل من بين الخصاص من ضوء طبيعى يسطع به النهار أو تفيض به مصابيح الشارع فى الليل.

كنت فى تلك الأيام المريرة المعتمة أعيش وحيدًا مهجورًا. حيًا شبه ميت فى تلك الشقة الخالية. أعانى ما يسمونه: «قفلة

الكاتب» The Writer Block تلك الحالة التى يفقد فيها الكاتب قدرته على الكتابة والرغبة فيها. يغدو الوجود لديه بلا معنى. ويكون ضعيفًا أضعف ما يكون. ويصير انزواؤه فيما يشبه الصندوق المحكم نوعًا من الكمون الواقى. يتحاشى مواجهة العالم بمثل هذه الدرجة المبرحة من الضعف. ويأمل أن تعود روحه إلى انتفاضها فى مثل هذه السكينة والهدأة.

ومن أين لي أن أتابع بهدوء ظل جسده المتحدِّر على الخصاص. لم أكن مكترثًا بشيء. ولم أكن أمتلك فى هذه الشقة شبه العارية ما أخشى عليه. ثم إن باب الشرفة كان محكم الإيصاد. وقدّرت أنه يلزمه الكثير من الوقت حتى يتمكن من فتحه.

سمحت لنفسى بالاسترخاء على الكنبة بظهر الغرفة. أراقبه يحاول فسخ الباب بأداة ما كانت معه. وكان يعمل باطمئنان وهمة مما أيقظ داخلى فضولاً حقيقيا لمتابعته.

رأيت شق الباب يتأرجح وتتسع فيه مساحة النور القادم من الشارع، فقدرت أنه على وشك الدخول. مددت يدى متوترًا بعض الشيء إلى مفتاح «الأباجورة» إلى جوارى وتهيأت. وما أن انفسخ الباب وانصفقت مصاريعه حتى أوقدت النور.

لم ينهضنى فزعًا من مكانى غير صوت سقوط العصا الحديدية التى كانت معه والتى فسخ الباب بها. وقعت من بين يديه عندما فوجئ بوجودى وأعشاه النور. دوّى صوت ارتطامها ببلاط

الغـرفـة فـأفزعنى على غـيـر توقع. واستـيـقـظ داخلى خـوف من امتلاكه لـهذا السلاح الذى قد يستخدمه فى قتلى. ولو من باب رد الفعل للمباغتة أو بتأثير الخوف والارتباك.

جاءت حـركتى التالية غـريزية تمامًا وخاطفة. قفزت ووضـعت قـدمى على العـصـا. وأودعت قـدمى كل عـزيمتى وثقلى حـتى لا يستطيع انتزاعها لو أراد. لكنه فاجأنى بسكوته. بل بتخشبه وكان لصقى تمامًا لا تفصل بين وجهينا غير سنتيمترات قليلة.

رأيت شـحـوبه الشـديد خلف سمـرته الخفيفة. ورأيت حبات العرق المنعقدة على جبينه وقدّرت أنها باردة. وكأنما بفعل غريزى ركلت العـصـا لتستقر بعيدة عن كلينا وتتوارى أسفل الكنبة. ثم ابتعدت عنه وأنا أرجوه ألاَّ يخاف وألا يـخوفنى. ووعـدته مقسمًا ألاَّ يحدث له أى سوء.

كـان نحيفًا وخفيفًا وبوجـهـه آثار جـروح كثيرة مما تميز وجوه الأشقياء. ذكـرى مـعـارك كثيرة خـاضـها بـالمدى هنا وهناك. ومع ذلك بدا فى هيئته السـاكنة على باب الشرفة شىء ما رقيق وهش. وكـان من أبناء هذه القبيلة من البشر التى تلازمـهـا طويلاً مـلامح الصـبـا. رغم أن شـعـره القـصـيـر الأجـعـد كـان قـد وشـاه بعض الشيب.

هيئ لى أنه وقف ســاكنًا بمكانه فـتـرة طويلة لهــذا دعــوته للجلوس. ودفعت نحوه أحد مقـاعـد (الأنتريه). ومـا أن صـرت بجانبه حتى أحسست بهاجس يوترنى. ورجـوته إن كـانت معه مدية أو مطواة فليـخـرجـهـا ويلقـهـا جانبًا حتى يحين وقت ذهابه.

قلت له أنه ليس ثمة داع لارتكاب أية حماقة لأنها لن تكون ضدى وحدى . فهو آت لسرقة أقصى عقوبتها سنة . ثم إننى لن أبلغ عنه . أما التورط فى قتل أو اعتداء بالسلاح . . ؟

لم أكن أنهيت كلامى عندما راح يخرج جيوبه . كانت خالية كلها إلا من منديل متسخ مشعث . وشعرت بأنه متعب وربما جائع أيضًا فبادرته بالدعوة إلى الطعام . وأحسست أنا نفسى بالجوع .

لم أجد عندى غير بقايا طبق فول تجمد فى الثلاجة . وبضع حبات طماطم . وخبز قليل يابس . وبعض من العسل الأسود . هيأت مائدة من هذا كله على المنضدة الصغيرة بركن الغرفة . وكان يشاركنى العمل كلما طلبت منه ذلك ونحن نتحرك ما بين المطبخ والغرفة . لكنه بدا عاجزًا عن الكلام وأنا أحاول إنطاقه لعل ألفة تتكون بيننا .

لم أيأس من صمته . ومنيت نفسى ونحن نجلس متقابلين وبيننا اللقيمات المشتركة أن أعثر على كنز مفاجئ من المفارقة الإنسانية ، وألّفت فى ذهنى قصة لصداقة دائمة تنعقد بيننا . لكننى لم أظفر منه وأنا أجاذبه الحديث إلا باسم من هذه الأسماء الشائعة بين الأشقياء زعم أنه اسمه .

بدا مستغربًا وحذرًا طوال الوقت حتى أننى لم أستطع التخلص من خوف كامن إزاءه . ولما أحسست بالنوم يغالبنى ويغالبه مددت له فراشًا ينام عليه بطرف الغرفة . ونمت أنا على كنبة الأنترية التى تختفى تحتها عصاه الحديدية . . آخر أسلحته .

كنت أغفو وأفزع فأراه فى العتمة التى يوشيها نور الخصاص يفزع على فزعى لكنه يسقط سريعًا فى جب النوم. قدرت أنه كان تعبًا وربما لم ينم منذ أيام. وجعلتنى هذه الفكرة أطمئن على نحو ما. وأستسلم لمغالبة النوم.

شاغلنى كابوس مشوش لم يدم طويلاً ولم يوقظنى. ثم فتحت عينى مأخوذًا بنور الفجر الذى تسلل بقوة مع نور مصابيح الشارع عبر الخصاص. وفى النور اكتشفت غيابه.

وجدتنى أقفز من مرقدى وأقف على الأرض ثم أقرفص ملهوفًا أنظر تحت الكنبة. أبحث عن العصا التى خطر لى أنه ربما يكون تسلل واستلها. وربما يكون متواريًا فى الحمام أو المطبخ ليضربنى بها الضربة القاضية ويتخلص من كل أثر للريبة قد يكون بقى لديه.

كانت العصا فى مكانها. هناك تحت الكنبة، ولفت نظرى غياب الأطباق التى أكلنا فيها بالأمس على المنضدة الصغيرة. فكرت فى أنه لم يجد فى هذه الشقة غير الأطباق ليسرقها ويمضى. لكننى ما إن دخلت المطبخ حتى شعرت بالخجل مما ظننته.

وجدت الأطباق كلها على رخامة المطبخ. نظيفة ومنسقة فى شكل جميل ساذج. لقد غسلها جيدًا وجففها باعتناء. واكتشفت أنه نظف المكان كله. رتب فراشه. وكنس الشقة برهافة وحذر حتى لا يوقظنى. وتسلل خارجًا برهافة وحذر. ونسى عصاه. هل نسى عصاه؟

عدت أطل على العصا الحديدية. وكان توحدها داكنة على البلاط الفاتح يوحى بوحشة انفراد أليم لكائن حى. مكثت مقرفصًا أطل عليها لبعض الوقت فأمتلئ بيقين أسيف. إنه لم يعد فى الشقة وإنه خرج للتو إلى الشارع. وإننى لو فتحت النافذة المطلة على الأرض الخلاء المؤدية إلى طريق الأسفلت سأراه. يمضى صغيرًا فى النور المنتشر والبراح. سأناديه واضعًا كفّى حول فمى كالبوق. سيسمع ندائى ويلتفت فألوح له بالعصا الحديدية التى نسيها. ونهضت.

فتحت النافذة. لكننى فى ساحة الفجر الواسعة لم أجد غير دفقات من نسائم شفيفة عذبة. ومدى من النور الرقيق وبعض الندى. وكنت أمتلئ بالرغبة فى معانقة العالم■

صوت نفير نحاسى صغير

سمعناه ونحن يرى بعضنا بعضًا رءوسًا وأعناقًا تطل من سحب بخار الماء الساخن المتصاعد من حولنا. صوت صغير، جميل، رشقنا ببهجة غير متوقعة فأخذنا نبحث عن مصدره وقد كان يمرق منتشراً فى المكان الغائم المحكوم كله.

لم نتبين مصدر الصوت فرحنا نتطلع إلى بعضنا البعض بوجوه كثغور تفتر عن بسمات صغيرة يقينية. وتحت الرنين الجميل الهادئ كنا نرى إلى أى درجة وهبنا الماء أعماراً جديدة فى بضع دقائق. نبدو أصغر سنا وأقرب للصبا، بينما شعورنا المبلولة تلتصق برءوسنا والماء يفعم بشراتنا بغضاضة حلوة ويقطر من ذقوننا وحلمات آذاننا وأطراف الأنوف.. يقطر ويسيل ويقطر من كل مكان وينحدر على أعناقنا حتى منابتها وأعالى الصدور التى أحياها الماء، فكأننا نسبح فى بحيرة تكللها سحب البخار ويضفى عليها النفير الصغير المبهم غلالة من سحر.

يبدو أننا إذ أغلقنا المحابس وانقطع انهمار الماء الساخن على البلاط البارد انقطع تصاعد سحب البخار من حولنا، وصرنا نتبين أنفسنا، بصدورنا العارية وأيادينا المتوقفة عن الحركة وهى تمسك بقطع الصابون وليف النخل أو قطع الملابس المبتلة، نتبين أنفسنا

ونحن نتلفت بحثًا عن مصدر الصوت الذى راح يتخللنا وقد هبط مستوى سُحب البخار.

انجلى السقف البعيد وبانت فتحته المشغولة بتقاطع القضبان وغطاء شبكة السلك الممزقة.. بانت الأدشاش والمواسير الداكنة الصدئة تتسلق الجدران وتبرز منها منحنية كأعناق طويلة لطيور غبراء محنطة علقت بمحيط الجدران الأربعة بلا حواجز أو ستائر. وتطلعت وجوهنا إلى مصدر الصوت وهو يروح ويجيء ويترجّع بين أعناق الأدشاش.

كان عصفوراً.. عصفوراً صغيراً بهى الجمال. لافتًا، نبصر ريش بطنه القرنفلى العاجى وهو يطير بين الجدران، وندرك أنه أخطأ وسقط من بين قضبان فتحة السقف وخلال فجوة فى الشبكة الممزقة ولا تلوح له سانحة للخروج إلا لو طار عموديًا، ونتابع مروقه المصحوب بإطلاق صوت النفير النحاسى الصغير، زقزقته الباهرة، ونبصر باندهاش لون منقاره الأحمر الزاهى، حمرة بهيجة جذبتنا حتى خرجنا عن نطاق الأدشاش.

قال أحدنا: إن هذا النوع من العصافير إذا فُقئت عيناه يغنى أجمل، واقترح ثان أن نمسك به ونضع فى عينيه مسحوق الكوبيا فيعمى بدون ألم مثل المساجين الذين يفعلونها بواحدة من أعينهم حتى تضطر إدارة السجن إلى نقلهم لمستشفى فيرون الشارع بالأعين المنفردة السليمة الباقية، ويرون الناس الطلقاء فى الشوارع ويرون بنات المستشفيات، واستنكر ثالث هذا الصنيع. لكن رابعًا اقترح أن نمسك به ونصنع له غمامة طرية من لبابة الخبز فيغنى لنا

أجمل دون أن نرتكب جريمة إتلاف عينيه. وصار للأقدام العارية وهى تجرى وتقفز على البلاط المغمور بالماء صوت هو خليط من اللطم والبقبقات، وانطمس فى لحظة صوت النفير.

لم يكن يطلق أى صــــوت وهو يمرق هاربًا من بين أطراف الأيادى المتقافزة إليه.. هنا وهنا وهنا وهناك، يطير ويرتد ويحيد ويمرق وينفلت ويصعد فيرتطم بقضبان فتحة السقف. يهوى حتى توشك أن تمسك به الأيادى لكنه ينبض، ويطيش جنون المطاردة فيتلاطم بين الجدران، حتى يتبدى فى شكل طيرانه التعب فتهيج المطاردة أكثر لكنه يرتطم أربع مرات متوالية بأربعة حيطان المكان. وفى برهة وجيزة رأينا الانطباع الخاطف لأربع بقع من الدم بأعلى الجدران الأربعة قُبيل أن يهوى.

كان ينتفض محتضراً على البلاط المبلول بين أقدامنا العارية، انتفاضات أخذت تتباعد وتخفت ونحن نتابعها بصمت، رحنا نكتشف خلاله أننا مكشوفو العورات، وعوراتنا حوشية ومخزية، ومع ذلك كان هناك شىء ما يجمد بنا عن الحركة رغم أن كلا منا كان يود لو يتوارى على الفور ولو فى غيمة من بخار الماء.

فقط، عندما انفتحت كوّة باب الحمام الحديدى الحديدية وأطل علينا الوجه القاسى وأتانا صوته: «شهل يا مسجون الكلب أنت وهو. وراكم عنبر تانى.. والا نقفلها على أبوكم يعنى».. جرينا إلى الأدشاش والصنابير نفتح محابسها حتى النهاية، لعل الماء يغمرنا وتستر سحب البخار المتصاعد عوراتنا بأسرع ما يكون■

شىء جميل جدا يحدث لك

أومن بقراءة الطالع، وقراءة الكف، وقراءة الوجوه، والإيماءات، وطريقة المشى، والنهوض، والجلوس . . أومن بذلك، وبكل ما يتشابه أو يتداخل مع ذلك، إيمان من يوقن فى أننا أكوان صغيرة، يتضمنها كون أكبر، متضمن هوالآخر فى كون أكبر منه . . أكوان داخل أكوان، وكلها مطبوعة بخاتم قانون عام يتكرّر مصغراً إلى ما لا نهاية أو مكبراً إلى ما لا نهاية، لكنه يظل فى تناسخه الخارق يشير إلى وحدة خارقة .

هكذا أومن بقراءة الطالع، وسمات الأبراج، وأنظر بعين الاعتبار إلى ما يقوله «الفلكيون» حتى لو كان فى قالب الابتذال الذى تعرضه أبواب «الحظ» و«البخت» و«النجوم» فى الصحف السيارة .

أومن، لكنى ـ ومنذ فترة طويلة ـ كففت عن إلقاء أى نظرة على ذلك الباب فى تلك الجريدة، تلك الجريدة بالذات، لفرط ما كانت قراءة حظى اليومى فيها تملؤنى بالإحباط والتشاؤم . حتى لقد أيقنت أن فلكى تلك الجريدة ـ لو كان فلكيًا حقًا ـ لا يتحلى بأى قدر من النزاهة، إنه يترصد بإيحاءاته المثبطة شخصًا ما من

مواليد البُرج الذى أقع فيه، وهو يريد أن يُقعد هذا الشخص تماماً ويكُفّه عن كل حركة حتى ليدمره. . فهو يملؤه بالشك فى كل شىء، ويخيفه من كل مبادرة، ويدعوه دائماً إلى تأجيل عمل اليوم إلى يوم آخر يحسن فيه طالعه.

وهذا اليوم لا يجىء أبداً. . فدائماً، وفقط، تنبؤات من مثل: «أنت اليوم فى حالة قلق وعصبية»، أو «ستجد نفسك وحيداً وشركاؤك يهجرونك»، أو «من تلقاه اليوم يضمر لك العداوة»، أو«اليوم غير ملائم للحب والارتباطات تفشل»، أو «رغم التعب والكد تخفق فى بلوغ الهدف»، أو «حادث أليم لمن يسافر اليوم».

وهكذا، هجمات على الروح عديدة، ومحبطة، حتى لقد اقتنعت فى النهاية بأن المقصود بتوجيه هذه الضربات النفسية إليه ليس سوى شخصى ولا أحد غيرى. ومن ثم فكرت ـ فى لحظة من لحظات اشتداد الضيق ـ أن أذهب إلى تلك الجريدة وأبحث عن ذلك الفلكى وأضيق الخناق حوله لعلى أكتشف سرَّ تربصه بى وملاحقتى نفسيًا على هذا النحو. لكننى أفقت سريعًا على مدى ما يمكن أن يتبدى من حماقة فى ذلك كله.

واكتفيت ـ فى البداية ـ بمقاطعة تلك الجريدة رغم اعتيادى قراءتها سنوات عديدة.

ثم لم أستطع مقاومة حنينى للجريدة التى اعتدت عليها. ووصلت إلى حل وسط. فكنت أشترى الجريدة لكننى أفوت على نفسى النظر ـ ولو بلحظ خاطف ـ إلى باب «حظك اليوم».

كان ذلك عسيراً فى البداية ويوشك أن يشبه مغالبة وسواس قهرى يتسلط على أصابعى وعينى لفتح الجريدة على هذه الصفحة والنظر إلى هذا الباب. كان ذلك صعبًا فى البداية وأصل إليه بتجاهل النظر إلى الصفحة كلها. لكن شيئًا فشيئًا بدأت أعتاد على تجاهل هذا الركن وحده من الصفحة. ورحت أدعم تجاهلى وأرسخه بشىء من الاحتقار لهذه السفاسف التى أقنعت نفسى بأن كاتبها مجرد مدعٍ ومحترف ألاعيب صغيرة.

صرت بيسر بالغ أتجاهل هذا المربع الصغير بأبراجه الاثنى عشر وأدور ببصرى قارئًا ما حوله. ومن الغريب أننى وأنا فى مثل هذا الرسوخ تنفلت منى نظرة، وتقع بالضبط على السطر الذى يخصنى. فأقرأ مندهشًا، وأكرر ما قرأت: «شىء جميل جداً يحدث لك اليوم»!

أى شىء جميل؟ مكثت أفتش فى مسائلى الخاصة والمسائل العامة.. فى اللحظة، وفى الأفق. واكتشفت ببؤس أننى ـ مثل كثيرين.. كثيرين جداً ـ لم أعد أنتظر أى شىء جميل يحدث. لم يعد هناك ما يُفرح أو يعد بالفرح. وكان هذا مرعبًا لى أن اكتشفت وجودى فى الحياة لمجرد الاستمرار فى الحياة، وأننى أعيش ـ فقط ـ بجسارة من صار يحتقر الانتحار. فلا حياة عامة مقنعة، أو واعدة، ولا حياة خاصة حقيقية. ولا بشر قريبين ليأتنس بهم العمر. فلقد ابتعدوا. تبعثروا فى الزمن النائى والأماكن القصية. فأى حدث جميل يمكن أن يحدث؟! أى جميل أتخيل وقد صار كل جميل مستحيلا أو كالمستحيل؟.. فهل يتحقق مستحيل ما؟

وهل يمكن أن ينشق زمانى ومكانى عن ضياء لأمل حقيقى فى أفق ما؟ أو . . هل أسافر إلى فرح ما، أو يأتينى أى فرح؟ أتساءل فأجدنى عبر التساؤل أجلو خواطر بعيدة طُمرت تحت إحباط مديد. وأتخيل المعجزات. أتخيل وأتمادى فى التخيل فأجد الهاجس يتلبثنى رويدًا رويدًا ويستحيل إلى شبه يقين فى أن شيئًا ما جميلاً يمكن أن يحدث. ويملؤنى هذا الشعور بمسرة وجلة فأنتظر.

يمر النهار ولا جديد بينما أنا أنتظر. أخف مسرعًا لكل دقة على الباب. ويدفعنى قلقى للإطلال كثيرًا من النافذة. وأخيلة كالخرافة تستبد بى ومعى تتحرك، ولا شىء يقع.

ويدخل الليل مقبضًا ظلامه أكثر من أي ليل مضى، فيحملنى إحباطى إلى السرير مبكرًا. أنام وقبل أن أستغرق فى النوم يشاغلنى الأمل بأننى سأستيقظ على طارق ما، على رنين هاتف، على أى شىء يحمل لى بشارة الشىء الجميل. . الحدث الجميل يقع قبل أن ينقضى يومه.

* * *

فى زرقة الأعالى الصافية البعيدة رأيت طيورًا بيضاء. ورأيتنى تحتها فى زورق ناعم يتأرجح. هل كنت أسميه فى نفسى مركبًا أم قاربًا أم فلوكة؟ لا أدرى. وكان الزورق فى نهر رقراق. هل كان النيل أم بردى أم الدنيبر أم الدانوب؟ لا أدرى. كل الأنهار التى رأيتها فى رحلة عمرى امتزجت ملامحها فى سمت هذا النهر. صفو المياه واستبحار المدى ورحابة الضفاف. ثم تلال الخضرة فوق الرحابة. نخل وصفصاف وبتولا وكروم وتفاح وكرز ولوز.

كل الأشـجـار التى رأتهـا عـيناى كـانت هناك . وكـانت هناك بين الأشجار كل بيوت الأهل والأصحاب والأحباب التى ألفتها على مدى عـمرى . ثم تجلت شـفيقة فى الزورق بين ذراعى المجدفتين بيسر . تجلت ثم تجسدت وأنا برجوعها مسحور . هذا الصبا الذى كان يعود وتعود فى اللحظة كل زهرة العمر .

وراح الزورق ينسـاب كـأنما بانسـراح الخـاطر . وكنا بمسـرانا نمر بزوارق أخـرى على الأجناب تسرى ناعمـة . وفى الزوارق عـرفت وجوه كل الأهل والأحباب والأصحاب .

كانـوا فى لحظة الرضا ذاته . وكـان رضاهـم يطلق زورقنا فيسرع أنعم . ودخلنا فى نفق على الماء يعرشه لبلاب أو عنب برى أو تمر حنة أو ياسـمين . لا أدرى . فـقط . كـانت هدأة سكرى ونـحن نستريح . نطلب التفاح فيدنو ونطلب الشهد فنشرب . ثم راحت تومض فى نفق الظلال الماطرة النجـوم . تـومض تومض تـومض . حتى اشتعل النور . اشتعل النور فاستيقظت .

* * *

أعـشـانى النور مـزرقًـا أبيض يفـيض عـبـر الخـصـاص فلم يدر بخلدى أنه الفـجر . كنت ثملاً لا أزال ببقايا الحلم الملون المضىء . وكنت أغـوص فـى نعـيم الفـراش مـرتاح البـدن والنفس راحـة لـم أخبرها قط من قبل . وعندما تمطيت مستكملاً يقظتى كانت العافية كلها تتمطى معى . . لا ثقل ولا ألـم وكأنى مستوعَب فى كيان من أثير . من أين جاءتنى كل هذه الراحة؟ ووثبت من فراشى خفيفًا

رضيّا. تمطيت فى وقفتى على الأرض وفردت ذراعّى وتمطيت وأردت أن أملأ صدرى بهواء الدنيا فلم يسعنى هواء الغرفة.

فتحت الشباك على اتساعه لكن صدرى كان يتشهى المزيد، وعيناى تحنان إلى البراح والرؤية أوسع. فصعدت إلى السطح. كنت خفيفًا وعفيًا كأيام الصبى البكر. وعلى السطح الخالى تطلعت إلى الكون.

كان قمر الليلة الفائتة يبين خفيفًا وهو يوشك على الذوبان فى ضياء الصباح الباكر والشمس لم تصعد بعد.

ها هو ذا يوم جديد يولد.

وتذكرت نبوءة اليوم الفائت فلم أجد فى نفسى غير الرغبة فى التمطى من جديد والتنفس عميقًا من هواء الصبح، وإذ بى وأنا أطلق الزفير عريضًا أطلق رباعية «چاهين» عريضة أيضًا، وشجية فى الصبح الساجى:

«أنا اللى بالأمر المُحال اغتوى»

«شفت القمر نطيت لفوق فى الهوا»

«طلته ما طلتوش إيه أنا يهمنى»

«وليه.. ما دام بالنشوة قلبى ارتوى»■

ـ ٢ ـ

بارا سيكولوچيات

خمس دقائق للبحر

فى السادسة وعشرين دقيقة تقريبًا. ومرات كثيرة: فى الدقيقة العشرين بالضبط . . ألتفت، فأبصر الطابور فى مدخل الكوبرى. ويتناهى إلى سمعى الدبيب شبه المنتظم لمائتين من الأقدام الصغيرة المتقدمة فى خطوة عسكرية محنكة. ويعلو الدبيب شيئًا فشيئًا فيما الطابور يقترب من موضعى، وأنا أنتظره.

فى هذه اللحظة يكون قرص الشمس الكبير الأحمر قد علا فوق بيوت الشط الآخر، والشجر الغارق فى الظلال عند انعطاف النيل شرقًا. وانتشر اللون البرتقالى يصبغ الصبح . . صفحة الماء، وبطون النوارس البيضاء المنطلقة فوقه، وبعض الزوارق الساكنة فى مراسيها الليلية حول عوامة الكوبرى، كذا الضفة المبطنة بالحجر الجيرى الأبيض. تكون واجهات بيوت الكورنيش البيضاء والضاربة إلى الصفرة كلها وردية. أما السحب القليلة القريبة من الأفق فإنها تكون مشربة الحواف بهذا الاشتعال الشفقى. ولا يكون فى هذا المدى كله غير شقشقات آلاف العصافير المستيقظة لتوها في شجر الضفاف، وترنيمة كروان مختبئ فى جزر الديس والغاب الدانية من الشط، ورفرفة أجنحة النوارس المنطلقة، ثم الدبيب.

أكون قد أمضيت ساعة أو نحوها جالسًا على كرسى بلاچ صغير وسط مشاية الكوبرى على رأسى قبعة من قماش تنسدل حافتها العريضة على وجهى، وعيناى تختبئان وراء نظارة غامقة كبيرة، ويداى تمسكان خفيفًا ببوصة مفرودة العُقَل يرتكز عقبها بين كعبىّ وخيطها يتدلى إلى الماء بثقل من الرصاص دون صنارة. فأنا فى حقيقة قلبى لا أبتغى الصيد، ولا أحبه. فقط: أتوارى خلف تبرير غير جنونى ـ بمنطق ناس هذه الأيام ـ إن تعرّف علىَّ أحد من ناس هذه الأيام، للمكث هكذا طويلاً. . أعاقر أنفاس الصباح البكر، وأرى مطلع الشمس، واستيقاظ النيل، ثم يدهشنى ما يتجلى به هذا الطابور، فأدمن انتظاره، بل أدمن ما هو أكثر من مجرد الانتظار.

يشارف الطابور على موضعى فلا أطيل النظر إليه لكثرة ما حفظت من ملامحه، لكننى أندفع نحو السياج واقفًا. . أجعل البوصة عمودية لصقه حتى لا تعوقنى عن النظر من أبعد نقطة فوق (درابزين) الحديد المنُدّى. . أرى سياج الكوبرى من الخارج، ورقرقة الماء السحيق تحته، وأعرف أنهم ـ أطفال ملجأ الأيتام ـ يقتربون منى أدنى ما يكون، يقتربون برءوسهم الحليقة، وعيونهم المدهوشة دائمًا. . بزيهم الرمادى الكالح الموحد، وأحذيتهم الطرمبة السوداء الملمّعة بشدة، ومخالى الدمور البيضاء المصفرة المعلقة من آذانها القماشية الطويلة فى الأكتاف.

أصغى لتغير إيقاع الأقدام الصغيرة جنبى فأدرك أن (العرّيف). . هذا الشاب الطويل، مضحك الطول، اليتيم

مـــثلهم، والذى يقـــود الطابور برأس حليق أيضًـــا، وعــــينين حولاوين، وزى وحذاء طرمبة، إضافة إلى عصا فى يده ليست غير فرع صغير أخضر لم تنتزع حتى أوراقه. أدرك ـ دون التفات ـ أن هذا العـريّف يقف الآن على بعـد خطوة منى، دائمـا فى هذا الموضع وعلى بعد خطوة.. يواجه طابوره فاتحا ساقية الطويلتين المقوستين قليلاً، يرفع ذراعيه ويهز غصنه فى الأعالى هزتين، فيأتي الأولاد ويتراكمون أمامه.. تتضاغط صفوفهم وأقدامهم الصغيرة المدرّعة تبدل حركة السير قُدمًا إلى سير فى المكان.. خطوة تنظيم متحمسة عالية الدبيب، أرهف سمعى خلالها وألتفت خفيفًا متوقعًا صدور الأمر.

وبلا تعريف، أو حرف عطف، ومثل شخص يصيح بعد توقفه عن الجرى توًا.. أسمع نداء العريف: «أشبال مؤسسة تربية تعليم تأهيل بنين أبناء وزارة شئون اجتمعيـ ااااه. قف». دب. دب. دب.

ويتوقف الأولاد مثل خُشُب صغار بلا سند، ولا ملمح للحياة فيهم غير التماع العيون وحركتها المترقبة. ثم يملأ العريف صدره بالهواء ويتريثّ قليلاً، ويطلق الأمر: «أشبال مؤسسة تربية تعليم تأهيل بنين أبناء وزارة شئون اجتمعيا اااه. خمس دقايق بحر»! يسمى النهر بحراً، ويحدث الهرج الجميل، وتوشك ذروته.

وفى نفس حيز وقفتهم على المشاية، جنبى، ينفرطون.. يتجلون أطفالاً فى غمضة عين.. تتداخل صيحاتهم الرفيعة، وتبتهج وجوههم، وتأتلق العيون الطفلية التى طُمست.. تتئد

المخالى كلها فى صف واحد، أبيض، يتورّد عند سفل السياج بين أقدامهم القلقة. وألمح حركة واحدة للأيادى الصغيرة وهى تدخل فى الجيوب الرمادية، ثم تخرج بالحفنات البيضاء.

وعبر فجوات حديد السياج المشغول يندفعون برءوسهم وأياديهم وصيحاتهم واللفتات، فأنسى نفسى كما فى كل مرّة، أو أحب لو أنسى. . أندفع بصدرى إلى الدرابزين، وعليه أنطوى، وأطل. ألمح العريف يطل مثلى عند الطرف الآخر البعيد.

مائة رأس مدورة حليقة، بمائة فم صغير، ومائتا عين تلمع بعفرتة حلوة، ومائتا يد مضمومة. . تطل جميعًا على النيل كأنها تخترق جدارًا حديديًا إليه. وفى لحظة واحدة تنطلق مائة من الأصوات الرفيعة فى نفس واحد: «واحد. اتنين. تلاتا !!!»، وتنفتح الأيادى الصغيرة قاذفة فى الهواء آلاف القصاصات المنمنمة من الورق الأبيض. ويشتعل الهتاف: «طيرى طيرى يا عصافيرى. طيرى طيرى يا عصافيرى».

طيرى طيرى طيرى. . بإلحاح جميل، وصخب لا يؤذى أذنا، تتكرر الكلمة ملخصة نداء المائة صوت تصحبها القبضات الصغيرة ملوحة مع إيقاع ترديد الكلمة، كأنه تشجيع حار يُبقى هذه الآلاف من القصاصات محلقة تصعد وتهبط وتميل تدور وتتداخل معًا. . تظل دون أن تهوى طالما النداء عليها يتكرّر. تبدو كأسراب كثيفة من عصافير جنة بيضاء منمنمة تتعلق مرفرفة قرب حافة الكوبرى من الخارج، وتحتها الماء.

ملاكمة الليل

لم يعد أمامنا فى مواجهته ـ وحتى آخر الليل ـ إلا أن نتلاكم . . يضرب بعضنا بعضًا نحن الذين جعلنا مصير السجن أكثر تقاربًا من الإخوة الأشقاء . . نضرب ضربًا جنونيًا بعد أن فشلت كل أساليبنا فى مواجهته، منذ بدأنا نحس بتكاثره وهياجه مع أول الليل .

لقد أبقينا مصابيح الزنزانات الضئيلة مضاءة لعله يبقى ملتصقًا بالسقف كشأنه فى النهارات الكثيرة الماضية، لكنه لم يفعل . ثم بدا كأنه يتوالد من الهواء ليتخم الهواء ويمص دمنا، ونوشك أن نتنفسه لفرط كثافته التى جعلت الهواء أمام أبصارنا ـ دون مبالغة ـ أسود .

رحنا نضربه بالمنشات التى صنعناها من مزق ملابسنا ونسالة أطراف البطاطين . وأشعلنا كل ما لدينا من خرق وأوراق كنا نخبئها لنهرّب فيها رسائلنا، لعله يهرب من الدخان، حتى أوشك أن يخنقنا ويعمينا الدخان . ومع ذلك لم يتوقف وواصل شن غاراته على جلودنا . . على دمائنا . وكان كثيفًا ولجوجًا ومؤلما، وأسوأ من إيلامه كان صوت أزيزه الذى بدا كأنما يدوّم داخل حلزونات آذاننا نفسها .

كأنه عدو بشرى . . كريه، وقاس، وغبى، انطلق أكثر من صوت بيننا يسبه سبابًا فاحشًا ومغلولاً ومعبأ بالكراهية، بينما كانت أيادينا لا تكف عن محاولة سحقه بصفعات وضربات نوجهها بأنفسنا لأنفسنا حيثما يحط . . على الوجوه أو السيقان أو الصدور أو الرقاب أو الأذرع . ومن شدة الضربات وكثرتها بدا أننا نفقد شيئًا فشيئًا شعورنا بالألم .

ولعل هذا الشعور بالخدر الذى كانت تجلبه إلى أبداننا الضربات، ولعله مطلق اليأس والرغبة فى مقاتلته حتى النهاية، حتى لو دفعنا ثمنا لإيقافه أن تتحطم عظامنا نفسها . . لعل هذا كله هو ما قادنا إلى فعل التلاكم عندما اكتشفنا أن كل واحد منا أقدر على رؤيته فوق جسد زميله، أمامه، ومن ثم أقدر على تحديد موقع الضربات الصائبة . وشرعنا نتلاكم .

كانت اللكمات مترددة متباعدة فى البداية، وما لبثت حتى صارت جنونًا جماعيًا تتخلله الصيحات مع كل شعور بابتلال القبضات من سوائل انسحاقه المدمّمة اللزجة . ورحنا رغم بدء ظهور الكدمات، نحس باختفاء الآلام، ويتصاعد إحساسنا باختفائها مع كل ضربة ساحقة لأكبر كمية منه، سواء توجهها قبضاتنا أو تتلقاها الأجسام .

مكثنا نتلاكم رغم إحساسنا بأن كثافته لم تتناقص، لكن مجرد أن هذه اللكمات صارت كأنها وجودنا ذاته، فى مواجهته، واصلنا توجيهها، وتلقيها، بآخر ما فى دواخلنا من احتقار، وبآخر ما فى أبداننا من قوة . حتى أننا تتابعنا نتساقط من شدة

الانهاك، كقتلى المعارك الضاربة . . متناثرين ومتكومين فى أوضاع لم يتهيأ لها البشر عند النوم، بأذرع لُويت تحت الأجساد، وأرجل ملتفة، وأفواه مفتوحة، وعيون لم تكمل إغماضها.

لم يكن نومًا قريرًا بالتأكيد ذلك الذى تساقطنا فيه منهكين، لأننا فزعنا على النور يتدفق عبر الأبواب الحديدية التى فتحوها لنا لنذهب إلى دورات المياه فى الصباح. ورحنا نخرج من الزنزانات أشباه نيام، لم نكمل استيقاظنا إلا بعد ما أحسسنا بأقدامنا تدوس فى طبقة كثيفة من رماد أسود هش يغطى امتداد الطرقة الطويلة كلها، بطريقة توحى بأنه لحظة كنا نتساقط منهكين، غائبين، كان ـ هو ـ يتساقط خارج الأبواب، وكأنه مطر أسود يابس ينهمر على بلاط الطرقة■

السائق الاحتياطى

فور صعودى إلى «الترولى باص» رقم ٢٦ وقع عليه بصرى، فانشدهت. تصورته إنسانًا آليا وضعوه فى المقعد خلف السائق ووراء عجلة قيادة ثانية ليقوم بدور سائق احتياطى إذا لزم الأمر. إذا أصابت السائق الحقيقى سكتة قلبية أو دماغية مفاجئة. أو اختلت ردود أفعال السائق البشرية نتيجة سهو أو توتر.

تصورت ذلك وغذى تصورى سابق انشغالى بغرابة ما قرأته عن الروبوطات المنتظرة، البشر الآليون والعقول الالكترونية القادمة والقادرة على التصرف الذاتى وعلى الابتكار. وعزّزت هيئته الفريدة من ذلك التصور. فقد كان رشيقًا بنموذجية التماثيل «موديلات» عرض الملابس فى الواجهات الزجاجية، وعيناه الملونتان صافيتان صفاءً يوشك أن يكون زجاجيًا خلف زجاج نظارته الطبية الصقيلة.

ملابسه شبه الرسمية منشاة ومكوية بحدة. والكاب جديد تمامًا فوق رأسه المنتصب. جلسته مشدودة. وشاربه دقيق أصفر كأنه مرسوم. وأصابعه بيضاء طويلة ونحيفة، لافتة الطول ولافتة البياض ولافتة النحافة.

توقفت أمامه دقيقتين أو أكثر دون حراك. ثم مرت بى لحظة من شك خفت خلالها خوفًا شديدًا أن أكون فى هلوسة. أن يكون ما أراه مجرد تجسيد بصرى خادع لهواجسى. ولما انجابت لحظة المفاجأة ولحظة الشك وتبينت الفكاهة الجنونية فيما يحدث أمامى انفجرت فى الضحك. قهقهت كما لم أقهقه قط وأنا أضرب جبهتى براحتى وكأننى أضحك أيضًا من نفسى. وكانت قهقهتى هذه هى التى قادتنى إلى الرجل، أو قادته إلىَّ.

دعانى بإشارة آمرة مرحة إلى الجلوس فى المكان الخالى بجواره. ولم يكن هناك بد من طاعته، رغم إدراكى الآخذ فى الاستضاءة والتحدد بأنه ليس أكثر من مجنون هارب أو خارج من مصحة للأمراض العقلية. مجنون يمارس جنونه بانطلاق وإن بهدوء شديد ودقة يوشكان أن يكونا لطفًا بالغًا وأناقة الكترونية، فقد كان يلعب دور السائق من خلف ظهر السائق الحقيقى، وبعجلة قيادة يعلم الله من أين جلبها. يحملها مرتكزة على إحدى ركبتيه وتكاد تبدو لمن لا يمعن فيها وكأنها عجلة قيادة مكررة داخل الباص، وتدور بنفس القدر وفى نفس الوقت الذى تدور فيه عجلة القيادة الحقيقية.

كان يعلق بجيب قميصه ميكروفونا صغيراً ينتزعه عند الوقفات (ليذيع) أسماء محطات الوصول عند فتح الأبواب وأسماء المحطات المنتظرة بُعيد إغلاقها. ويفعل ذلك بدقة متناهية وتزامن مذهل حتى أنه لا يدع أى مجال للشك لدى الناظر فى أن الصوت الذى تذيعه سماعات الباص الداخلية هو صوته. ثم إنه التفت

نحوى مفاجئًا إياى بإدراكه كونى أجنبيًا : «مرحبًا بك فى مدينتنا كييف»، وأردف يسألنى بصوته الآلى الهادىء : « من أى البلاد ضيفنا العزيز؟» .

كدت أعود إلى القهقهة عندما التقط ميكروفونه الصغير وأخذ يذيع : «حضرات الركاب المحترمين. معنا ضيف عربى عزيز من مصر. مصر بلد الأهرام وأبى الهول والتماسيح والبرتقال والشمس. باسمكم وباسم إدارة الترولى باص فى مدينة كييف أرحب به» كبحت جماح رغبتى فى الضحك. وكان صوته لم يتعد حدود سمعه وربما سمع أقرب الركاب إلينا فى الجوار. فقد كان ميكروفونًا مقطوع السلك لا يتصل بأى شىء ولم يكن من النوع اللاسلكى على أية حال، ولم أضحك مخافة إخراجه عن طور هدوئه. ثم إننى بدأت أدرك بتوتر كونى الشخص الوحيد الذى وقع فى مصيدته. وصرت معه موضع نظرات كل ركاب الباص ونظرات السائق الذى كان يتابع الموقف عبر مرآته بهدوء قد يكون مبعثه وجود هذا الحاجز السميك وراء ظهره، إضافة إلى السياج المعدنى المحيط بمكانه.

بعد ذلك وجدت نفسى منزلقًا ومضيفًا إلى مصيدتى مأزقًا أوقعت نفسى فيه دون انتباه. أوقعت نفسى فيه وأنا أحاول تخفيف توترى بالمزاح، فعندما سألنى : «أى الأماكن يحب ضيفنا العزيز أن نمر بها فى جولتنا؟» . أجبت : «السيرك» .

لقد كان خط «الترولى باص» رقم ٢٦ يمضى فى شارع «شرباكوڤا» . ولا ينعطف أبدًا إلى طريق «البابيدا» حيث يوجد

السيرك. فمحطته الأخيرة تنتهى قبيل ناصية «بابيدا» ليدور عائدًا أدراجه إلى شرباكوڤا. ومع ذلك أومأ إلىّ سائقى المضياف موافقًا بهدوء الواثقين. وأخبرنى أنه لأجل خاطرى وخاطر مصر «بلد الأهرام وأبى الهول والتماسيح والبرتقال والشمس» سيحول مسار الباص إلى طريق «بابيدا»، ولكن «بعد إيصال دفعة الركاب الموجودين معنا إلى أهدافهم، وحتى المحطة الأخيرة. هذا ما تقتضيه تذاكرهم، وهو حق يحميه القانون».

وانسحب كل ما كان لدى من رغبة فى الضحك، ورحت أهجس بالاحتمالات الخطرة التى قد تترتب على إحباط رغبته فى (إكرامى) وما قد يبدو له إهانة بالغة وإهدارا لثقته بنفسه.

وصل الباص إلى المحطة الأخيرة ونزل كل الركاب مشيعين «مضيفى» وإياى بنظرات ممسكة للضحك. وعندما هممت بالنهوض فى محاولة للنزول أعادتنى إلى مكانى غمزة من يده لركبتى. وكان السائق أمامنا يلتفت ويرى ويسمع مبتسمًا. وصاحبى يذيع عبر ميكروفونه منقطع النظير: «الباص سيتجه إلى طريق «بابيدا» وعلى حضرات الركاب المتجهين ناحية «شرباكوڤا» أخذ الباص التالى المتوقع وصوله بعد دقيقتين من الآن».

وأخذ يكرر تنبيهه هذا، لكن صوته كان يضيع فى جلبة صعود الركاب الجدد وبين دبيب أقدامهم المتسارعة نحو المقاعد الخالية. ولذهولى بعد ما أغلقت الأبواب لاحظت هذه الارتجاجة التى شملت جسم الباص كله وسمعت زمجرة الفرامل غير المألوفة وفى وقت يتعين عنده الانطلاق.

أخذ الأمر يتكرر ويتصاعد معه الانتباه العام للركاب الجدد. إذ يبدو الباص وكأنه ينطلق، لكنه سرعان ما يرتج وتسمع زمجرة الفرامل. فهل يعقل أن السائق كان يعمل فى اتجاهين متضادين؟ المضى قدمًا وإعاقة هذا المضى فى نفس اللحظة؟ لم يكن ذلك منطقيًا.

وعبر إلقائى النظرات على السائق فى الأمام، ولحظى لآسرى فى الجوار، بدأت أحدس ما يمكن أن يكون (ميكانيزمًا) غريبًا لتفسير هذا التضاد الغريب. فالسائق أمامنا (يفتح) مرسلاً الباص فى اتجاه «شرباكوڤا» دون أن يكون فى حاجة إلى إدارة عجلة القيادة. لكن مجاورى يدير عجلة قيادته الخرافية المرتكزة على إحدى ركبتيه باتجاه «بابيدا» عندئذ يميل الباص إلى الانعطاف بالفعل. يميل بشكل محسوس فيسرع السائق إلى الضغط على الفرامل بكل طاقته المدهوشة. فترتج العربة وتتصاعد زمجرة هذا التضاد الغريب.

تعالت صيحات الركاب متسائلة ومستنكرة عدم التحرك. وكنت أتابع عبر الصخب هذا التراسل المتوعّد بين (السائقَين) خلال مرآة الواجهة. ولم يعد عندى أدنى شك فى أننى بإزاء لحظة غريبة. فألح علىَّ من جديد هاجس الإنسان الآلى وشرعت أختبر شكوكى بلا حذر. بلا حذر أجس ذراع مجاورى وأميل لأنظر إليه مباشرة فى العينين. وأستغرب. فإن كان واردًا أنه إنسان آلى بهذه الدرجة من التطور التى تجعله متمردًا على إرادة البشر، أو تلك التى تجعله يؤثر إلى حد ما وراء الطبيعة. فإن ما لا يمكن أن يكون

لأى إنسان آلى هو هذه الدرجة من حرارة الجلد البشرى وملمسه اللذين أحسستهما بينما أصابعى تتلمس أصابعه. وما لا يمكن أن يكون لأى إنسان آلى هو هذا (التون) للحم الإنسان على العظام الإنسانية وهو ما تبينته بينما كانت يدى تجس ذراعه. وإن كان صفاء عينيه يوحى بصفاء زجاجى لعدسات كاميرات مطورة تقوم بدور عيون الإنسان الآلى، «الروبوت»، فإن مثل هذا الصفاء يواتى عيون البشر الذين يضربهم السل فى بعض مراحله، أو تضربهم بعض الأنواع من انفلات العقول. ثم رعشة الانفعال البشرى هذه التى راحت تنفضه عندما نهض السائق معيداً فتح الأبواب وملتفتًا إليه بصراخ: «اسمع. كف عن هذا وإلا تفضّل بالنزول. نعم وإلا تفضل بالنزول».

كان واضحًا أن السائق لا يعرف ما «هذا» الذى يريد من مجاورى أن يكف عنه. لكنه يستشعر أن شيئًا ما يحدث من هذا الرجل وعجلة قيادته الخرافية أو يحدث بسببهما. ومع استعار تصارخ الركاب العجولين شعرت بالوجل من تفاقم الوضع وإمكان تطوره إلى حد استدعاء الشرطة وما قد يترتب على ذلك من مساءلات واسترابات وضياع وقت. فأسرعت بتلفيق اعتذار لصاحبى الغريب عن الاستمرار فى (الجولة) وطلبت إرجاءها إلى وقت آخر. وعاجلته بهبوطى من الباص قبل أن يفتح فمه ليتكلم.

وعلى الرصيف واتانى شعور أولىّ بالارتياح للإفلات من مأزق لا أدرى كنهه. لكن عندما صك سمعى صوت اصطفاق

أبواب الباص تنغلق، تبعثر ارتياحى، وغزانى شعور عميق بالأسف لأننى فى حقيقة الأمر أفلتُّ شيئًا ما، نادرًا، وجوهريًا دون التمعن فيه أو استقصائه وتركته يبتعد مع ابتعاد الترولى باص رقم ٢٦ وتوغله فى شارع «شرباكوڤا» كسابق عهده■

لعلها تنام

ناداني أنينها في عمق الليل فاستيقظت رغم الجدران وبحيرة النعاس التي كنت غارقًا فيها . . استيقظت شاعرًا بالعجز وبالتعاسة إذ كان كل شيء قد تأخر ، وكانت كل الإمكانيات لكبح وحشية آلامها قد استُنفدت : المسكنات ، والمطمئنات ، والأدوية المخدرة ، والمعالجة بالكهرباء ، حتى عزل الأعصاب الطرفية . ولم يعد هناك غير البتر . البتر الذي لم يكن متاحًا على الفور ، ولم يكن يعني - في حالتها - إلاّ مزيدًا من الإسراع بها نحو الموت . لكنه موت دام . . فأي مجزرة بلا معنى . . بلا أي معنى .

أضأت نور غرفتها فلطمني منظر الغطاء منزلقًا عنها وهي في شللها عاجزة عن استعادته . ولطمني منظر قدمها التي تموت ببطء بين أسنان مناشير غرغرينة السكّر . وأحسست بأن الأقدار قد شاءت لي أن أرى جزءًا من بدن أمي يموت أمام عيني - أنا ، الطبيب - يعذبها ، ويعذبني . . ولم يكن معنا غير الليل .

أنهضتها لتجلس في السرير لعل ذلك يخفف عنها شيئًا ما . ولما كانت عاجزة عن شد عودها المنهار ، فإنني جلست وراءها لأدعم ظهرها بصدري . وأحسست بها - وهي في حضني - كما لم أحس

بها قط من قبل: متعبة، وهشة، ومبيضة الشعر إلى هذا الحد، وقريبة من نفسى أقرب ما تكون. وكنت وأنا أحاول تهدئتها وإنامتها أردِّد: «نامى يا أمَّا نامى. نامى. نامى».

«نامى يا أمَّـا نامى. نامى. نامى»، وجـدتنى أتأرجح وأنا أردّدها، فأتذكر تماوج الكلمات والنبرة التى يتبعها المنوّمون فى جلسات العلاج بالإيحاء. وكانت الكلمات على قلتها تلوح كافية لاستيعاب كل ما قرأت عنه فى هذا الشأن أو شاهدته. لم أكن جربت ذلك أو صدقته. ثم إننى رحت أساند أرجحتى وتماوج الصوت براحة يدى اليمنى أبسطها أمام وجهها وأحركها ببطء ـ كما رأيتهم يفعلون ـ لعل أجفانها تثقل.

«نامى يا أمَّا نامى. نامى. نامى»، وكانت تغمض شيئًا فشيئًا وأنينها يخفت ويتباعد، فأتمادى فيما وجدت نفسى فيه.. أنزلق خفيفًا من وراء ظهرها وأنا أمسك بكتفيها، وأميلها ببطء حتى لا يرتطم ظهرها ورأسها بالفراش، وترقد. ترقد مغلقة الأجفان وإن فى تقلص، خافتة الأنين وإن فى حشرجة. بينما كان تماوج صوتى المهدهد لا يكف عن الترديد.

«نامى يا أمَّـا نامى. نامى. نامى»، ونامت!! نامت ترتخى جفونها المسدلة، ويرتخى شيئًا فشيئًا جسدها كله، وأنا أوحى بهـذا الاسـتـرخـاء.. تسـتـرخى الأطراف.. والأذرع.. والسيقان.. حتى أطراف الأصابع تسترخى.

وتسترخى أكثر قسمات الوجه، فأمعن.. أمعن فى الإيحاء

لاجتلاب النوم، لإقصاء الألم، دون أن أصدق ذلك، وإن كنت آمله بكل ما بقى فى روحى من قوة اليأس . . نعم، قوة اليأس، وعجز الابن ـ الطبيب ـ المرتجى ـ أمام عذاب أمه .

«نامى يا أمَّا نامى، نامى. نامى نامى»، نامت، وراحت تنساب أنفاسها انسياب أنفاس الغارقين فى أعماق النوم لأوخذ بهذا الأثر . . أوخذ، وأنتقل إلى الإيحاء بتمام الراحة، بل أطلب من وجهها ابتسامة. أكرر على مسامعها : «تشعرين بالراحة . . بالراحة والسلام على شاطئ بحر هادئ . . هادئ وتبتسمين للنسائم . . للنسائم . . للنسائم . . تبتسمين» . وتسحرنى إذ تبتسم .

الليل، وأمى، وأنا، وصوتى المتماوج، وأقدامى تروح وتجىء فى المساحة الصغيرة إلى جوار سريرها . . بإيقاع ثابت تروح وتجىء . . أتكامل فى هذا الإيقاع المتواتر، وأحس بالخوف من الخروج عنه حتى لا تستيقظ آلامها. ومن شاطئ بحر هادئ إلى حدائق ناعمة على الضفاف إلى سماوات صافية الزرقة تسبح فيها طيور بيضاء . . بيضاء وأجدنى ـ أنا نفسى ـ أسترخى، ويسرى فى أطرافى خدر مريح ينتشر مزيحًا كل تعب مما يوحى باستطاعتى الاستمرار حتى اليوم التالى، بل أيام كثيرة تالية. لكننى إذ ألتفت وألمح وجهها فى النور أسكت . . أسكت مدهوشًا ، وأتوقف .

إنها لم تستيقظ مع سكوتى وتوقفى ـ كما تخيلت ـ للوهلة الأولى، ثم وجدتنى فى ذهول أفكر : هيهات أنّى تستيقظ . فلم

يكن الوجه الذى أبصره أمامى هو وجه أمى. وجه أمى الذى عرفته طويلاً مع تفتح وعيى على كونى ابنًا لها وكونها أمى. لقد كان الوجه الذى أبصره أمامى وجهًا قريبًا بالروح منها وبعيدًا في الزمان. . أبعد من كل سنين وعيى، وسنين الذاكرة، أبعد من كل سنين عمرى، وكان مؤثرًا بشكل غامض وساحق التأثير.

لم يكن الوجه الذى يتجلى لى نائمًا فى غيمة شفيقة من خدر التنويم، مستريحًا وشاحبًا ومسالمًا إلى درجة الحلم. . لم يكن إلا وجه طفلة مجهولة. . نحيفة وعذبة. . بريئة تقف هناك. . هناك على مبعدة خمسين سنة وأكثر. تقف وحدها دون أن تعرف أبدًا ما سيكون فى انتظارها من آلام كثيرة تنتهى بألم وحشى. ألم سيكون خارج قدرة أى أحد على منعه. ألم قاس فى انتظار طفلة متوحدة كأنما لا أحد لها فى الدنيا. من الطفلة؟

من الطفلة؟ أسأل نفسى وأسأل الليل والسكون ووجهها المسالم النحيف الشاحب. وإذا بالإجابة تعبرنى كموجة لا مرئية. . موجة تضيئنى: «فاطمة على حسين شرف الدين. عشر سنوات. . أو تسع. . وربما ثمان». وما أغرب ذلك، فالاسم. . هو اسم أمى. فأى صدفة أليمة أيتها الطفلة التى أنحنى عليها وئيدًا وئيدًا. . أتلمس بحفيف أناملى رقيق ملامحها فأشعر يقينًا أنها ابنتى. . هذه ابنتى. . ابنتى: فاطمة محمد المخزنجى. نعم. . فاطمة محمد المخزنجى. آه يا بنت عمرى. آه. خبئ وجهى الباكى على صفحة وجهها النائم يا ليل، وترفّق بنا. ألا ترفق! ■

رجال

ـ «إيه؟»

سألنى من مرقده مرجرجًا صوبى نظرة عينيه الكليلتين، عينى الشيخوخة السابحتين فى ضباب تصلب شرايين المخ الممعن. ووجدت نفسى وأنا مرتكن على كتف بابه شاردًا أرد:

ـ نيتشقو.

(لا شىء). نطقتها لا شعوريًا بهذه اللغة، فى هذه اللحظة، واكتشفت أننى أفكر فى «إيرينا». أفكر مثل أسطوانة تستعيد إبرة معلقة نغمة واحدة منها، ما إن تنتهى حتى نبدأ من جديد. كنت أستعيد صورة «إيرينا» وهى تقبل فى موعدها الثابت فيما أكون منتظرًا إياها فى النافذة: أراها تهبط المرتفع الأخضر المفروش بزهور الهندباء المزدهرة صفرتها الذهبية تحت الشمس وهى فى هذا الثوب الخفيف الأصفر. فكأنها فراشة تطير هابطة بين زهور تشبهها.. تطير أذيال ثوبها مع النسائم الربيعية فتبدو بالضبط وكأنها إلىَّ تطير.

ـ بابتشكا مايا.

(يا فراشتى)، وجدت نفسى من جديد أنطقها بهذه اللغة، وكنت أبتسم فى شرودى مستعيداً لحظة تنقر بأصابعها الجميلة على الباب. نقر صغير جميل.. متناغم كأنه نقر عصفور. فأفتح الباب دفعة واحدة لتسقط فى حضنى دفعة واحدة. وأنحنى لأحملها عاليًا ضامًا ساقيها الجميلتين ثم أتركها تنزلق بين ذراعىّ حتى يقابل وجهها الحلو وجهى. وأسمعها تقول:

- «ساسكوتشيلاس باتيبى».

(لقد افتقدتك) - تقولها، فأرد وأنا أشدِّد الضم:

- يا توچى.

(وأنا أيضًا)، ردّدتها، من جديد بهذه اللغة، وكنت فى نشوة أحلق فى البعيد. بعيدًا جدًا أحلق، فى قارة أخرى وراء البحر واكتشفت أن العجوز يكلمنى فى كل مرة حاسبًا أننى أحدثه ولحقت بآخر كلماته:

- «على رأيك».

كنت قد غيرت له ملابسه التى لوثها وغيرت الفرشة. وفى الحمام وأنا أحممه شعرت بابتئاس شديد، وضنى. شعرت بالتعب وبالحرمان من كل جميل وأن الدنيا بنت كلب، قاسية، قاسية علينا معًا، فلقد كنت وحدى معه، وغسل شيخ طاعن فى السن لوث ملابسه وفراشه لا يمكن أبدًا أن يكون كغسل طفل. حتى وهذا الشيخ هو أبوك.. أبوك الذى أحببته عمرًا وأحبك. ففضلات الشيخوخة، والجسد السائب الذى لا يتعاون معك،

وإحساسك بأن كل هذا سينتهى ليبدأ من جديد، ربما بعد دقائق خمس. . شىء مضن. ثم إنك تواجه صورة محتملة ـ وراثيا ـ لنهايتك المفجعة بكل تفاصيلها. فتتعذب بأقل حرمان تعانيه فى يومك. ولقد كنت أفتقد إيرينا بعد أن عدت وتعذر جمع شملنا إلى الأبد.

ـ أو إيرينا. . كاك إيتا بولنا.

(آه يا إيرينا. . لكم هذا موجع)، قلتها منتبهًا هذه المرة إلى أننى إذ أتكلم بهذه اللغة أشعر بكثير من الراحة وأنا مرتكن على كتف الباب. كأنها تمسح بيد «إيرينا» على أطرافى المتعبة من كثرة الشيل والحط. كأنها تجفف بلل أقدامى ويدى التى تحركت كثيراً ما بين برودة المياه وسخونتها. استعذبت ذلك، فرحت أتمادى فيه:

ـ ايدى ايدى. . ايدى ك منى.

(تعال. . تعال إلىَّ)، وكنت أغمض عينىّ على هذه النفس البعيدة الَتى التقيتهَا على غير ميعاد فأحسست أنها حقًا قدرى وأننى قدرها. وأحسسنا معًا بأن الله خلق كلاً منا للآخر تحديدًا رغم أنه أرسلنا متباعدين. لكنه دبّر بقدره الرحيم لقيانا.

ـ دا. . دا.

(نعم. . نعم)، رددتها وإذ بى أنتبه إلى العجوز. . أبى، وكأنه يترجمها. . يهمس:

«آ. آ».

كانت الهالات الفاتحة حول قرنيتيه الرماديتين الكليلتين تعطيان إحساسًا بالتيه عنده. بأنه سابح فى ضباب غامض من الأخيلة. ما الذى كان يتذكره بالضبط وهو يقول «آ. آ»؟ أحسست فى نفسى فضولاً لتبيُّن ذلك. وإذا بى أسير النشوة التى تملكتنى ألقى عليه السؤال بتلك اللغة:

ـ شتوايتا دا؟

(ما هذا الذى تقول له نعم؟)، سألته مجتاحًا بنزوة غامضة من الهذر الذى لم أجد فيه ما يعيب. وقد كنا وحدنا، وحدنا تماما فى البيت الخالى. وكان فى ثوبه النظيف الأبيض وهيئته المغسولة يوحى لى فى هذه اللحظة بأنه طفل.. طفل عجوز، وراق لى أن أعابثه. لكننى فوجئت به وكأنه يفهم تلك اللغة يجيب تحديداً على سؤالى:

ـ «آ. كانت طيبة»

ـ آكتو تاكايا دوبريا؟!

(ومن تكون هذه الطيبة؟!)، سألته مشدوداً بين قطبين شديدى الجذب فى هذه اللحظة: استعادتى لعطر إيرينا فى تحدثى باللغة تلك، ورغبتى فى اكتشاف كنه هذا التساوق فى إجاباته، وكأنه يعرف تلك اللغة التى لم يسمعها قط من قبل أن أتكلم بها. وإذ به يفاجئنى من جديد:

ـ «فاطمة. فاطمة».

إذن كان يتكلم طوال الوقت عن أمى. عن الراحلة التى انهار

دفعة واحدة فى أعقاب موتها. كان يتكلم عن زوجة عمره، فى نفس الوقت الذى كنت أتذكر فيه زوجة قلبى. وأغمضت عينىّ أستعيد إيرينا وأغمغم بذلك المقطع من الأغنية:

- باتشمو مى نى ڤ مستى

(ولماذا نحن لسنا معًا)، ردّدتها وإذ بى أجد أبى ينكمش على نفسه فى مرقده.. يلتم كجنين فى رحم أمه، ثم ينهنه كطفل صغير، كان بكاؤه الواهن مؤثرا مريراً، سحبنى حتى تمددت إلى جواره وضممته دون أن أجد لدى كلمة واحدة تناسب اللحظة.. كنت أعرف أنه يتذكر أمى البعيدة. وكنت أتذكر إيرينا التى أبعدتنى عنها البلاد■

البستان

« وقد شدا طير الصبا واختفى
متى أتى . يالهفا . أين غاب؟»

* * *

لم أجن . ولن يقودنى أى نكران إلى الجنون . أى هذا الجنون . كل هذا الجنون الذى هربت من زحامه فى المدينة إلى كنف القلعة ذاك الصباح . ورأيتها . وقع بصرى عليها وأنا أهبط مسحوراً برسوخ الحجارة . الحيطان الشاهقة والعقود الهائلة والقباب الرحيبة . كل ذلك صنعه الحجر الأشهب . الأبيض بياضًا مضمخًا بالدكنة الخفيفة . لون يرتاح إليه النور ، يتسلل من الفتحات الضنينة المستطيلة للأبراج ، وينفذ من ملاقف الهواء ، ويتناثر بقعًا ويشع خفيفًا فيضىء ـ بحساب ـ طيف قرون عديدة مضت . ولقد رأيتها أول ما رأيتها . . فى راحة النور .

* * *

توقفت عن الهبوط إذ أبصرتها . كانت قبالة فتحة من فتحات الأبراج ، ولم أدرك كنه وقوفها فى بادئ الأمر . فقط شدنى

التفافها بالنور وسحر جمال حزرته. شيء ما أزاح ثقل خجلي المزمن وكأنه لم يوجد قط. ووجدت نفسي بريئا وخفيفًا أقترب منها. أتقدم كأنني أطفو في حلم. وتوقفت عند حافة النور. رأيتها مشرقة وجميلة أكثر مما تخيلت. فاتنة في ثوب بسيط من القطن الأبيض الحاني وشعرها بديع السواد يسترسل حتى خصرها. كانت تتأمل المدينة التي تنبسط في المنخفض البعيد. ورأيت المدينة من وراء كتفها مشرقة كما لم أفكر بها قط. بيضاء بياض الشهبة الهادئ وتوشيها هنا وهناك خضرة الحدائق. أهذه حقًا هي المدينة التي أفزع منها؟

وانتَبَهَتْ إلى وجودي. . «مرحبًا» قلتها بلغة أجنبية لظن ظننته. لكنها أجابتني بعربية حلوة: «مرحبًا». لم تفاجئني لأنها نطقتها ببساطة ومودّة. وكأنها تصحح لأليف قريب خطأ يسيرًا وقع فيه سهوًا. وعادت مضيئة تتأمل المدينة من جديد.

خلت أن المدينة أيضًا تتأملها بما ينعكس على بياضها من شعاع، ورأيتها أبهى من رأيت، وكان الوجود بقربها بهيًا. وددت لو أقول لها ذلك. لكنني عوضًا عنه وجدتني أقول: «المدينة جميلة من هذه الزاوية. . من هذا البعد وهذا الارتفاع».

«هي جميلة في هذه اللحظة» ـ ردّت بيقين سرعان ما انتقل إليَّ. فحلقت أتأمل عذوبة اللحظة.

شيئًا فشيئًا أخافني الصمت واستطالة الوقوف. لعلهما إن انتهيا يؤذنان بالانقطاع. فأواصل هبوطي وتعود هي إلى تجوالها. لهذا استبقتُ النهاية وسألتها: «أتقفين هكذا طويلاً؟». وأجابتني

بألفـة : «بل سـأهبط لرؤية السـوق القـديم . إنه جـمـيل أيضًـا هذه اللحظة . أليس جـمـيلاً؟» . قلـت : «نعم» . نعـم . وانتـفض قلبى نشوان إلى جوارها حاضراً غـائبًا حتى انتبهت إلى تماوج النور . كنا نعبر قـوس البـوابة الهـائل . وراحت مـودّة الحراس اللائذين بالظل تودعنا «مع السـلامة . مـائة سلامة . ألف سـلامة» . كـانت نظراتهم تغبطنى . . وكنت من فرط الاغتباط أوشك أن أطير .

مضينا نوغل بين حنايا السوق القديم المسقوف . مدينة لا ينقطع تواصلها ولا تتوقف مساربها عن الامتداد . دكاكين صغيرة عطرة تتراص على الجـانبين وبينهـما ممرٌ ضنين يمتد ويتفرع مفـضيًا إلى ممرات أخرى ودكاكين على الجانبين لا تكف عن الظهور . . عمارة قـريرة وحنون . لمس أياد مـضت كـانت تسلم سـحـرها بلا انقطاع لأيام تليها ، تضع الحجر على الحجر فتقوم جدران وتتقوس عقود وتلتئم قباب . يمتد السـوق ويمتد متقبلاً الإضافة بلا عسف ولا عـجلة . ونحن ننسـاب مسحـورين . نترك نفسينا لتيار الحركة فى الممرات الضيقـة الطويلة بين الحـوانيت . زحـمة لا تدافع فيهـا ولا إسراع ولا قسوة .

نتأمل سبك العـمـارة العتيـقة والنور الذى يتسلل من فتحـات علوية ليضىء كفـاية . الشـمس تتوقـد فى الخارج والسوق تكتنفه ظلالٌ ناعمة ورطوبة حلوة . والمصابيـح الصغيرة والشموع الموقدة ليست إلا ترصيعًا لكل هذه القطيفة التى تموج بالحياة .

عطور وبخـور وصـور لوجـوه طيبة تنضح بالنور والسلام أمام الحوانيت أو بداخلهـا . بائعو التـوابل والشـمـوع والزهور وعـسل

النحل والفستق الأخضر. مكعبات صابون زيت الغار ورصات أقمشة الأنوال اليدوية الهفهافة.

ثم شدنى عرض لقناديل الزيت العتيقة المزخرفة معلقة على خلفية من قطع سجاجيد صغيرة معجزة. أشرت إلى أجملها وأردت أن أبتاعه لأجلها لكنها رفضت الفكرة. تخيلت أنها تشفق عليَّ من ثقل ثمنه فقلت لها: «معى كفاية».

فسألتنى: «ولم؟». «ليكون لديك» ـ قلت. فردت قاطعة: «لكنه عندى». وترقرقت: «لقد أحسست بجماله حتى أننى عندما أعلق عينىّ فيما بعد سأراه. إنه عندى».

انقطع عن الامتداد بغتة حنان السوق القديم. «لا شيء يدوم إلى الأبد» ـ ذكَّرتنى لتواسينى عندما لمحت جَزَعى. كنا قد عبرنا باحة ثم قوسًا لنجد نفسينا مباشرة فى أحشاء السوق الجديد. زحام وضوضاء وغبار تحت شمس لاهبة. مركبات ودرَّاجات وعربات تجرها بغال وحمير وبشر يتدافعون بالمناكب.

كنا نتحرك فى عسر وسط زحمة الأرصفة. ورحت أتلفّت وأتطلع فما رأيت مكانا لراحة البشر. ولا حتى مظلة لبائع مرطبات على الرصيف. فجأة علت الضوضاء إلى درجة لا تحتمل. إلى درجة دفعتنا إلى التضام بشكل غريزى. ثم وجدتنى أندفع وأدفعها دون تفكير. خطوة أو خطوتان وخفَّت حدة الضوضاء فتوقف اندفاعى وتوقفنا مدهوشين.

اكتشفنا أننا كنا نمر بسماعة ضخمة أمام محل لبيع شرائط

الكاسيت والفيديو. كانت تطلق ضوضاء واحدة من أغانى الصخب الرائجة هذه الأيام. ضحكنا من نفسينا لكننا لم نسمع صوت ضحكنا فى هالة الصخب ثم اكتشفنا تشابك أيدينا.

أحسست بحرير اليد الوديعة بين أصابعى فحل السلام بالعالم. لم أعد أسمع ضوضاء أغانى الصخب ولا لغط الزحام. مضيت بها. ولم نكد نجتاز حدود محل بيع الشرائط حتى أبصرنا مفرقًا فاجأنا بانقطاعه وظله وكأنه خليج هادئ يرفده الشارع وتغلقه بوابة عتيقة مواربة. ترامقنا فى فرح كتيم وتخاطرنا فاتفقنا فى برهة. خطونا حذرين وكأننا نتسلل فى الظلام. وحانت منّا التفاتة إلى آخر معالم السوق وراء ظهرينا. محل الشرائط فى جانب وفى الجانب الآخر محل ملابس يعلن عن أوكازيون بمكبرات صوت لم تكن تقل عن سابقتها ضوضاء ولا جلبة. وعبرنا شق البوابة.

* * *

ما إن خطونا خطوة أو خطوتين وراء البوابة العتيقة حتى انقطعنا عن العالم لنتصل بعالم آخر. واجهتنا باحة سماوية هى فى ذات الوقت حديقة. فى جنباتها ينتصب نخيل ملكى وتمتد عرائش كرم وتتخللها أحواض بها ورد وريحان وزنبق. مماشيها من رخام أبيض وبمركزها نافورة من مرمر ينبثق منها ويسيل عليها ماء غزير صاف يوحى بالابتراد والعذوبة.

وفى الصدر خلف النافورة رأينا إيوانا يطل على الباحة بقوس

جميل رحب. ولم نكد نتلفت بحثًا عمن نستأذنه فى المكوث لحظات حتى برز لنا من ركن الباحة صبى يوشك أن يكون شفافًا. تبينًا فى الركن الذى برز منه مدخل (بوفيه) يتوارى بين جنبات ياسمين غزير ينام على السور. وكان السور من الحجر الأشهب ذاته الذى يشيِّد القلعة.

سألنا الصبى بحركة من يد نادل مدرَّب وبصوته الصغير القرير فى المكان أن نتفضل. وأشار إلى جوانب الباحة وإلى الإيوان حيث تتناثر فى الظل مقاعد خفيضة أليفة ومناضد مثلها. وأشرنا معا إلى صدر الإيوان فتبعنا ووقف ساكنا ومرهفا حتى استرحنا فى أماكننا. بعدها سألنا عما نطلب.

سألته طربًا إن كان يمكننى شرب شاى جيد بمياه معدنية مع حزمة من النعناع الأخضر. فأجاب أن كل الطلبات موجودة. واستدار إليها فأكدتْ على طلبى باسمة بهمس: «شاى صاف؟! ونعناع أخضر؟! فكرة».

من الذى قال ذلك عن معنى السعادة؟.. إنه هو ذلك المتوحد العائش فى قبو متواضع. المنقطع عن كل طنطنة الدنيا وبريقها ليتواصل مع جوهر روحه ويطلع علينا بالأسفار. صاحب أجل أسفار زماننا وأضخمها. السفر الذى يعلمنا حب النهر وحب الطمى وحب البحر وتفهم الرمال. إنه هو.. أجاب عن سؤال يستكنه معنى السعادة فى مرّة نادرة من المرات التى أدلى فيها بحديث. قال: «إن السعادة هى أن أشرب كوب شاى.. مع صديق.. فى لحظة رضا». وأنا كنت أحتسى كوب شاى صاف.

تطفو على سطحه وريقات نعناع أخضر. مع جميلة كالحلم. فى راحة إيوان ظليل. فهل كنت أطمع فى المزيد؟ لم أكن أطمع فى المزيد. فقط وددت لو يتوقف الزمان بنا على نحو ما. ولأن ذلك مستحيل فقد سألتها: «أنلتقى هنا غدا؟». وأجابتنى باسمة: «لم لا». فردّدت روحى صدى الإجابة: «لم لا».

* * *

« غــد بظهــر الغــيب واليــوم لى

وكم يخــيب الظـن فى المقــبل»

مكث مقطع الرباعية يترجع فى خاطرى المذهول وأنا أروح وأجىء فى المكان، فى الموعد الذى ضربته لها بالأمس وكان صمتها آية الموافقة عليه. أروح وأجىء، وأسأل الناس هنا وهناك وأعاود السؤال. لا بد أنهم حسبونى مجنونًا فكانوا يأخذون أوضاعًا دفاعية كلما عدت إليهم أكرر السؤال فيكررون الإجابة.

كان صاحب محل الشرائط يتراجع إلى جوف محله وصوته يرتعش بالرد: «قلت لك.. عشر مرات قلت لك». وكان العاملون فى محل الأوكازيون يقتربون من بعضهم البعض كلما رجعت إليهم، بينما أحدهم يرفع صوته أكثر مما ينبغى ويقدم يديه مضمومتين بشكل غريزى كمن يتأهب لرد هجوم متوقع.

لا بد أننى كنت أشبه حيوانا مذبوحًا يروح ويجىء متخبطًا بين المحلين. أو طائرًا عاد فلم يجد عشه ولا وجد الشجرة التى فيها العش. أى رعب هذا؟ إننى لم أجد المكان. لم أجد المكان. لم

أجد المكان. كنت أسأل عن البستان الذى دخلته بالأمس معها فيقولون لى أن لا بستان هناك! لا يوجد مثل هذا البستان وهو لم يوجد قط. فهل جُننت؟

لم أجد غير تعبير البستان أصف به المكان الذى دخلته بالأمس معها. تنازلت لعلهم يفقهون فقلت الكازينو. وتنازلت فقلت المقهى. وتنازلت فقلت الحوش. لكنهم رمقونى بريبة مؤكدين أنه لم يكن هناك بين المحلين ومنذ سنين إلا سور عالٍ يخفى وراءه خرابة. أثر بناء قديم لا يتذكره أحد.

أخذت أمر بالسور العالى بين المحلين. أتحسسه وأخبط عليه بجماع قبضتى غير مصدق قولهم وغير مصدق وجوده. لكنه كان راسخًا وعتيقًا وتكسو آجراته المنقّرة المربدة أتربة سنين عديدة مضت.

لماذا هذا الإفزاع؟ أليست القلعة قائمة والسوق القديم والسوق الجديد؟ فلماذا يختفى البستان ويبتلع موعدى معها، وما شأن هذا السور اللعين؟

فكرت أن أتسلقه لأنظر ما وراءه لكنه كان عاليًا وكانت قواى خائرة، وكانت عندى بقية من يقظة لألحظ تكاثر العيون التى راحت تترقبنى ويتأهب أصحابها لدمغى بالجنون. هربت. خرجت من المكان كله. ومكثت أهيم فى الشوارع الخلفية لكن قدمى قادتانى إلى مدخل عمارة هجست أن واجهتها تطل على السور وما وراءه. صعدت فى دوار وأنا أبذل أقصى ما وسعنى لأبدو متماسكًا وتسللت إلى السطحٍ، فالحافة.

كان السور هناك حقًا فى الأسفل البعيد، وكانت الخرابة وراءه. لكننى كنت هنا بالأمس وكانت معى وكان البستان. «أنا لم أجن» ـ وجدتنى أرددها فأنفجر فى بكاء يرجنى رجًا حتى خفت من السقوط فتراجعت. لحظة ولم أستطع النوى فعدت إلى الحافة زاحفًا على بطنى هذه المرة. أطل على المكان عبر ستار الدموع فيموج الوجود. بلى كنت هنا وكانت معى وكان البستان. ولم يكن ينفذ إلينا من صخب الدنيا إلا شدو سيدة يحلق صوتها القادر الصافى بترانيم الشاعر.

وكانت صاحبتى تتمايل كغصن يهزه النسيم على أصداء الغناء. تتمايل حبًا حتى تمايل البستان. أنا لم أجن. «ولن أجن» ـ قلتها ماسحًا عن وجهى ابتلاله ونهضت. رحت أهبط إلى الشارع باتجاه السوق وأنا عاقد عزمًا: سأسعى كسعى الناس وأنا موقن أن حظى يفوق حظ الناس. ألم أسمع وأرى؟ بلى سمعت ورأيت، حتى أننى عندما سأغلق عينىّ برهة وأنا فى قلب الزحام والضوضاء والغبار سأعود أرى.. وأسمع.

« ولست بالغافل حتى أرى

جمال دنياى ولا أجتلى»■

صدر للكاتب

كتب قصصية:

* الآتي

دار الفتى العربي ـ القاهرة ـ ١٩٨٣

طبعة ثانية، ثنائية اللغة (عربي ـ إنجليزي) ـ دار إلياس ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

طبعة ثالثة، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

* رشق السكين

مختارات فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .

طبعة ثانية ـ مكتبة الأسرة ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

طبعة ثالثة، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

* الموت يضحك

دار فكر ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

* سفر

مختارات فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ .

طبعة ثانية، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

* البستان

دار سعاد الصباح ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

طبعة ثانية، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

* لحظات غرق جزيرة الحوت

الثقافة الجماهيرية ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

طبعة ثانية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٦ .

* أوتار الماء

دار ميريت ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

طبعة ثانية ـ دار ميريت ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

طبعة ثالثة ـ مكتبة الأسرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

* حيوانات أيامنا

دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

طبعة ثانية ـ دار الشروق ٢٠٠٧ .

فى الأدب البيئي للأطفال:

* آخر حيل الغزلان

كتاب قطر الندى ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠ .

* أجمل الزهور

مركز ثقافة الطفل ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

فى الثقافة العلمية:

* الطب البديل : مداواة بلا أدوية

كتاب العربي ـ الكويت ـ ٢٠٠١ .

في أدب الرحلات:

* جنوبا وشرقا ـ كتاب إلكتروني ـ كتب عربية ـ ٢٠٠٥ .

ترجم له (في كتب مستقلة):

ـ إلى الألمانية : ذبابة واحدة زرقاء

لينوس ـ بازل ـ سويسرا ـ ١٩٨٧ .

ـ إلى الروسية : أقاصيص مصرية

فاستوشني الماناخ ـ موسكو ـ ١٩٨٧ .

ـ إلى الإنجليزية : ذكريات نقطة الانهيار

مطبوعات الجامعة الأمريكية ـ القاهرة ـ ٢٠٠٦ .



مجموعة «البستان» تتسمى باسم آخر قصة فيها، ولكنها فى الحقيقة تتشكل من عوالم ثلاثة، لكل عالم عنوانه الخاص: العالم الأول تطلق عليه اسم «الفيزيقيات»؛ أى عالم الملموسات والمحسوسات والعينيات. والعالم الثانى هو عالم «السيكولوچيات»؛ أو المشاعر والدفائن النفسية الباطنية. والعالم الثالث هو عالم « الباراسيكولوچيات»؛ أى ما وراء النفس أو ما وراء ما هو مألوف، سواء كان حسيا أو نفسيا.

هذه القصص جميعا، مهما شطت رمزيتها أو شطحت باراسيكولوچيتها، لا تجرى وراء إغراب أو إبهار أو زخرف زائف سطحى، بل تكاد جميعا على اختلافها وتنوعها تعبر عن رسالة فى بنية القصص ترف بها رفيفا شعريا، وهى رسالة إنسانية صادرة عن خبرة حية عميقة تحتضن البشر والطبيعة والكون كله. وهى تتحدث بلغة رصينة شبه كلاسيكية، تشير دائما إلى الواقع دون أن تفقد صلتها بالمثال، وتتفجر دائما بدلالات إنسانية عميقة، ولكنها دائما مضمخة بعطر غنائى ناعم رقيق.

د. على الراعى



فى هذا الكتاب - الذى فاز بجائزة أفضل مجموعة قصصية صدرت فى مصر عام ١٩٩٢ - يرى الدكتور محمد المخزنجى وجودنا الإنسانى متجليا فى حالات ثلاث متكاملة هى: الملموس، والنفسى، وما وراء النفسى (الخفى أو الخارق). وهو يَعْبُر هذه الحالات فنيا، بمهارة، فيشير إلى السياسى والاجتماعى، اليومى والكونى، منتبهًا إلى مكامن الشعر فى كل ذلك. يطلق المخيلة فترتفع بالواقعى الملموس، ويعالج «الثيمات» النفسية دون غرق فى تجريدات علم النفس، ثم يقتحم مجال «الباراسيكولوجى» - ربما لأول مرة فى الأدب المحلى - لا ليثير الاستغراب، ولكن ليلمس القلب الإنسانى الذى يراه أعجوبة كبرى، ووسيلة أخيرة للنجاة فى عصرنا المضطرب.



دار الشروق
www.shorouk.com





www.ibtesama.com